عَرائِسُ المُروج

جبـران خليل جبـران

عَرائِسُ المُروج

Nymphs OF THE VALLEY (1909)

مع مقدّمة عامة ودراسة تحليلية

بقلم الدكتور نزار بريك هنيدي

❖ عرائس المروج / جبران خليل جبران

❖ مقدمة عامة ودراسة تحليلية: د. نزار بريك هنيدي

❖ الطبعة الأولى عام 2002 عدد النسخ 1000 نسخة

❖ يطلب الكتاب على العنوان التالي:

مؤسسة رسلان علاء الدين

للطباعة والتجارة

سورية دمشق ص . ب 30598

هاتف: 5617071 فاكس: 56113241

مدخل إلى أدب جبران

بقلم الشاعر
الدكتور نزار بريك هنيدي

بماذا يتميّز الأدب الحقيقي من غيره من الأعمال الكتابية؟ وما هي المعايير التي تتيح لنا الحكم على أدب ما بأنه أدب رفيع وعظيم؟ وإذا كان تذوق النص الأدبي مرهوناً للذائقة الشخصية التي تختلف بين متلق وآخر، كما أنها تتنوع وتتطور وتتغير بين بلد وآخر، وبين عصر وعصر، فكيف يتاح لنا أن نطلق حكم القيمة الموضوعي دون أن يكون هذا الحكم مشوباً بالكثير مما تمليه الأهواء الذاتية، أو تفرضه النزعات الفردية؟

نعرف تماماً كم قيل من كلام، وكم أريق من حبر، في المحاولات المستمرة للإجابة عن هذه الأسئلة التي تشكل أساس علم الأدب، ولب جميع النظريات النقدية، منذ أن اجترح الإنسان نصوصه الأدبية الأولى. وفي يقيني إنَّ هذه المحاولات لن تتوقف ما بقي الإنسان ينتج الأدب ويتذوَّقُهُ، أو بعبارة أخرى، ما بقي الإنسان محتفظاً بجوهره الأصيل.

وبالرغم من أن المدارس الأدبية المختلفة، قد وضعت عدداً من المعايير المتباينة لتقويم العمل الأدبي، إلا أن هذه المعايير لم تكتسب صفة الشمولية أو الثبات، بل بقيت نسبية، إذا قبلت بها طائفة من النقاد أو المتلقين، رفضتها أخرى، وإذا انطبقت على نص ما، فإنها لم تنطبق على نصوص أخرى، لا يستثنى من ذلك سوى معيار واحد، يكاد يجمع عليه الجميع، وما هذا المعيار سوى نجاح العمل الأدبي في امتحان الزمن.

فالنص الذي يتجاوز عصره الذي كُتِبَ فيه، ويبقى قادراً على بثّ المتعة الأدبية، وجذب جمهور القراء، بعد انقضاء الشروط الزمانية والمكانية التي كانت تحكم ظروف إنتاجه، هو النص العظيم بامتياز. ذلك أن الزمن هو الغربال الحقيقي والحكم الفصل في قيمةِ أدبيّةِ أي عملٍ كتابيّ.

ومما لاشكَّ فيه، إنَّ أعمال جبران خليل جبران، من هذه الأعمال التي استطاعت أن تصمد في وجه الزمن، وتنجح في امتحانه. ذلك أنها اليوم، وبعد مرور أكثر من سبعين عاماً على وفاة مبدعها، مازالت تتصدّر قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، ومازالت دور النشر تتسابق على إعادة إصدارها بطبعات شعبية أحياناً، وطبعات فاخرة أحياناً أخرى.

كما أن أعمال جبران لم تتجاوز حدود الزمان فحسب، بل تجاوزت حدود المكان أيضاً، فهي اليوم مقروءة في جميع بقاع الأرض، بعد أن تمت ترجمتها إلى معظم لغات العالم.

واعتماداً على هذا المعيار الذي قلّما يخطئ، فإن المهمة الملقاة

اليوم على عاتق النقاد والباحثين الذين يدرسون أعمال جبران، تتخطّى مسألة إطلاق حكم القيمة عليه، إلى ما هو أهم من ذلك بكثير، وهو محاولة سبر أغوار الأدب الجبراني للوقوف على الخصائص الأصيلة التي يتميز بها، واستقراء العوامل التي جعلته قادراً على ملامسة الجوانب الأكثر عمقاً وشفافيّة في الجوهر الإنساني.

ولما كان إبداع جبران خليل جبران لا يمكن فصله عن الحياة الاستثنائية التي آثر أن يعيشها كفنان استثنائي، فلا بد لنا من وقفة قصيرة مع فصول سيرته التي كانت مصدر إلهامه في الكثير من أعماله.

سيرة جبران :

ولد جبران خليل جبران في السادس من كانون الثاني عام1883 في مدينة صغيرة تقع فوق وادي قاديشا في شمال لبنان، تدعى (بشري). ومن الطريف أن جبران الذي كان يؤمن أوثق الإيمان بالتقمّص (على حد قول ميخائيل نعيمة) ما كان يحسب ولادته في شمالي لبنان مصادفة عمياء، بل كان يعتقدها نتيجة لازمة لحياة سابقة.

ذاق جبران منذ طفولته طعم الفقر والقهر، فأبوه الذي نأى بالخمر عن شؤون الأسرة، كان يعمل في عد الأغنام والماعز في الجرود لجباية الرسوم عليها، وقد أوقف بتهمة الاختلاس، فاحتجزت أملاكه وفرضت عليه الإقامة الجبرية في مركز قريب من المحكمة، مما

اضطر والدة جبران (السيدة كاملة) أن تترك زوجها ووطنها ، وتهرب بأولادها الأربعة من الذل والهوان مهاجرة بهم إلى مدينة (بوسطن) في الولايات المتحدة الأمريكية.

ووالدة جبران كانت سيدة ذكية وقوية ، تركت تأثيراً بالغاً وعميقاً في حياته وشخصيته ، وقد وصفها في إحدى رسائله إلى (مي زيادة) بقوله: (كانت محبوبة في محيطها ، ما عهدتها في أدنى درجاتها أقل من شقيقة ، و لا في أعلى درجاتها أقل من سيدة ، لقد أفهمتني وأنا بعد في الثالثة ، أن الرابطة بيننا هي كما بين صديقين، رابطة حب متبادل، وأننا كائنان مستقلان جمعتهما يد الحياة الشريفة ، كانت أعجب كائن عرفته في حياتي).

وفي (بوسطن) بدأت الوالدة في العمل هي وابنها البكر (بطرس). أما جبران فقد ألحق بمدرسة شعبية وبدأ تعلم اللغة الإنكليزية. ولفتت موهبة جبران في الرسم انتباه إحدى معلماته التي كتبت إلى صديقها المثقف الثري (فريد هولاند داي) طالبة منه الاعتناء بجبران، وأعجب الفنان الثري بهذا الفتى الشرقي الذي يمتح رسومه من معين الطبيعة البكر، فتعهده بالتعليم والرعاية ، وعَرَّفَهُ بعدد من الفنانين والأدباء، كما أسند إليه مهمة رسم أغلفة عدد من الكتب التي تنشرها دار (كويلا اند داي) ليجني منها بعض ما يسد نفقاته.

إلا أن جبران بقي يطمح إلى الدراسة في لبنان وبلغته العربية ، فوفَّرَتْ له أمه ما يكفل له العودة إلى وطنه الذي وصل إليه أوائل

خريف عام 1989 ، وانتسب إلى مدرسة (الحكمة) ليدرس اللغة العربية وآدابها.

وقد روى الخوري (يوسف الحداد) وكان أستاذ البيان في المدرسة أن جبران جاءه يشكو وضعه في الصف الابتدائي رغم ما حَصَّلَهُ من معرفة باللغة الإنكليزية وإتقان لفن الرسم، فقال له الخوري (ألا تعلم أن السلّم يرقى درجة درجة)، فما كان من جبران إلا أن يردّ بقوله (بلى، ولكن هل يجهل الأستاذ أن الطائر لا ينتظر السلّم في طيرانه)، فاقشعر بدن الخوري الذي شعر أنه أمام عقلية بارزة في فتى له حكمة الشيوخ.

وفي مدرسة الحكمة نهل جبران من معين التراث العربي، فقرأ كليلة ودمنة، ونهج البلاغة، وديوان المتنبي، بالإضافة إلى التوراة والإنجيل.

أما عطلته الصيفية فكان يقضيها في بلدته (بشري) رغم أنه لم يستطع التواصل مع والده الذي كان قد انتهى إلى حالة من البؤس والفقر جعلته لا يقدّر موهبة ابنه، فوجد جبران عزاءه في الطبيعة وفي صداقته لأستاذه في مرحلة الطفولة (سليم الضاهر) وفي رعاية أحد الوجهاء الذي يدعى (طنوس الضاهر)، والذي سوف تنشأ علاقة عاطفية بين ابنته حلا وبين جبران، أعاد جبران استيحاءها بعد عشر سنوات في قصة (الأجنحة المتكسرة).

إلا أن الزمن أبى إلا أن ينغّص على جبران ما بدأ يشعر به من إلفة

واطمئنان، ففي نيسان1902 بلغه خبر وفاة أخته (سلطانة) مما اضطره إلى ترك دراسته، والعودة سريعاً إلى (بوسطن). وهناك وجد أخاه (بطرس) مصاباً بمرض السل. ثم لم تلبث أمه أيضاً أن أصيبت بالمرض، وانتابتها حالة من اليأس والقنوط، فراح جبران يكتب لها بعض الخواطر التي يمكن أن تشدّ من أزرها بالرغم من أنه هو نفسه كان في تلك الفترة شديد الاضطراب. وقد كتبت صديقته (جوزفين) في مفكرتها واصفة حالته في تلك المرحلة: (جاءني جبران بالغ التعاسة، إنني أعرف في أعماق قلبي ما يقاسي من عذاب، وإنني فخورة بهذا العبقري الذي استقوى على واقعه).

وسرعان ما قضى المرض على أخيه (بطرس)، وما هي إلا أيام معدودات حتى لحقت به أمه، فعظمت المصيبة على جبران الذي قال في وفاتها: (ما بكيت عليها لأنها أمي وحسب، بل لأنها صديقتي. لقد كانت حكيمة فوق كل حكمة. إنها أعذب ما تحدثت به الشفاه البشرية: يا أمي، تلك الكلمة الصغيرة الكبيرة والمملوءة بالأمل والحب).

ورغم أن الحب الذي جمع جبران مع الشاعرة الأمريكية (جوزفين بيبودي)، كان عزاء جبران في تلك المرحلة، إلا أن جوزفين أيضاً لم تلبث أن وضعت حدّاً لهذه العلاقة بزواجها من رجل ثري يختلف عن جبران الذي كان فقيراً وأصغر سناً منها، ولم يبق من ذلك الحب سوى ما سوف يفوح فيما بعد من صفحات كتاب (دمعة وابتسامة).

وبعد هذه الصدمات المتوالية، تفرّغ جبران لرسومه وكتاباته، فأقام معرضاً للوحاته ترك انطباعاً جيداً. وكان من بين زوّار المعرض ابنة رجل سياسي معروف، سوف يكون لها شأن هام في حياة جبران، وتدعى (ماري هاسكل). وقد بلغ إعجابها بلوحاته أن دعته إلى عرضها في المدرسة الخاصة التي تديرها. كما تعرّف في الوقت نفسه على الصحفي (أمين الغريب) الذي كان يصدر جريدة (المهاجر)، فأخذ ينشر مقالاً أسبوعياً فيها.

وأصدر جبران كتابه الأول (الموسيقا) عام 1905، وأتبعه عام 1906 بكتابه الثاني (عرائس المروج) الذي نشره له (أمين الغريب) في نيويورك، وبدأت كتابات جبران تلقى المزيد من الإعجاب بين قرّاء العربية لما تتضمنه من نكهة خاصة وأسلوب فريد.

وراحت العلاقة تتوطد بين جبران، وبين ماري هاسكل التي عرّفته على صديقة فرنسية اسمها (إملي ميتشل) وتعرف بـ (ميشلين) وهي التي سيتخذ منها جبران موديلاً لرسوماته، فتضطرم نار الحب مع خطوط ريشته ليعيش قصة حب جديدة. وربما كان لميشلين أثر في تعريف جبران بالشعر الفرنسي، وفي إذكاء رغبته في السفر إلى فرنسا التي كانت تعج بحركة فنية تنطلق منها الحركات الفنية الحديثة.

وربما كانت ميشلين نفسها هي التي أهدى إليها جبران كتابه الثالث (الأرواح المتمردة) الذي صدر عام1908 والذي صدّره بالتقديم

التالي: (إلى الروح التي عانقت روحي، إلى القلب الذي سكب أسراره في قلبي، إلى اليد التي أوقدت شعلة عواطفي أرفع هذا الكتاب).

وما كان من ماري هاسكل أمام رغبة جبران الجامحة في السفر إلى باريس، إلا أن وافقت على إرساله على نفقتها، فسافر في تموز1908 حيث كانت ميشلين في انتظاره. ودخل جبران أكاديمية (جوليان) وتعلم أصول الرسم على يد الرسام جان بول لورنس، لأنه كان قبل ذلك يرسم معتمداً على فطرته دون أية دراسة أكاديمية، وهو ما عبر عنه بقوله (كنت في الظلام، والآن أشعر أنني أسير في الغسق نحو النور).

وخلال وجوده في باريس، لم ينقطع عن مراسلة (ماري هاسكل) بالرغم من وجود ميشلين إلى جانبه، بل إنه يقول لماري في إحدى رسائله (ميشلين الحلوة هي أم صغيرة عزيزة وطفلة صغيرة عزيزة، إنها في الواقع عون).

ولما اشتدّ به المرض آثر أن يعود إلى جانب ماري هاسكل طالباً منها الزواج، ورغم حبها لجبران وإعجابها به، إلا أنها رفضت عرض الزواج كي لا تحدّ من طموحه الإبداعي، وكان لها أن أرسلته إلى نيويورك ليتعرف على الأدباء العرب فيها وعلى رأسهم (أمين الريحاني).

وفي نيويورك عرضت لوحات جبران، وفي سنة 1912 أصدر روايته (الأجنحة المتكسرة) وأهداها (إلى التي تحدق بالشمس بأجفان جامدة، وتقبض على النار بأصابع غير مرتشعة، وتسمع نغمة الروح

الكلي من وراء ضجيج العميان وصراخهم، إلى ماري هاسكل)، وبعد سنتين صدر كتابه (دمعة وابتسامة).

وفي هذه المرحلة بدأت تلك العلاقة النادرة بينه وبين الأديبة (مي زيادة) عبر الرسائل التي لم تنقطع بينهما حتى وفاته.

ومنذ سنة 1912 بدا جبران أكثر التحاماً مع قضايا وطنه الذي يعاني وطأة الاحتلال العثماني، فكتب المقالات التي تدعو العرب إلى الاتحاد لمقاومة العثمانيين، وحين عمّت المجاعة لبنان سنة1916 كتب نصّه (مات أهلي) كما اشترك في حملة لجمع التبرعات.

وفي عام 1920 أسس جبران مع ميخائيل نعيمة وإيليا أبي ماضي وأمين الريحاني وآخرين (الرابطة القلمية) وانتخب جبران رئيساً لها. وقد أصدر عام 1919 قصيدة (المواكب) وهي القصيدة الوحيدة التي اعتمد فيها الوزن والقافية. ثم أصدر عام 1920 كتابه (العواصف)، وفي عام 1923 نشرت له مكتبة العرب في مصر كتاب (البدائع والطرائف).

وكان جبران قد أتقن اللغة الإنكليزية بفضل علاقته مع ماري هاسكل، التي استمرت في مراجعة ما يكتبه بالإنكليزية حتى بعد أن غادرت بوسطن وتزوجت. وقد أصدر جبران كتاب (المجنون) عام1918 باللغة الإنكليزية وأتبعه عام1920 بكتاب (السابق) وعام1923 صدر كتابه (النبي) الذي سرعان ما أصبح أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة.

وفي سنة 1925 التقى مع الشاعرة الأمريكية (باربرة يونغ) التي

أصبحت سكرتيرته الخاصة، وكان قد اتجه نهائياً إلى الكتابة بالإنكليزية. فأصدر كتاب (رمل وزبد) عام 1926، وكتاب (يسوع بن الإنسان) عام 1927، و(آلهة الأرض) عام 1930، و(التائه) سنة 1931 وكتب فصولاً من كتاب (حديقة النبي) التي سوف تعمل سكرتيرته على إتمامه ونشره بعد وفاته، ففي ربيع 1931 اشتدت عليه وطأة المرض، فنقلته سكرتيرته إلى المستشفى حيث ودّع الحياة في العاشر من نيسان، وتلبية لوصيته تم نقل جثمانه إلى بلدته (بشري) حيث رقد رقدته الأخيرة.

عوامل التكوين :

شكّلت أعمال جبران خليل جبران منعطفاً جديداً في تاريخ الثقافة العربية، وعلامة فارقة في الأدب العالمي كله، وكان ذلك نتيجة لتضافر مجموعة من العوامل:

منها ما كان مركوزاً في عمق شخصيته، التي تجنح نحو مثالية طهرانية، لا تعترف بالإنسان إلا متعبداً في محراب القيم العليا من خير ومحبة وعدالة وجمال.

ومنها ما كان نتيجة للواقع الذي عاشه في طفولته في لبنان، حيث أدرك بحسه المرهف النافذ مدى الانفصام الحاصل بين فتنة الطبيعة الخلابة، وبين قسوة علاقات الحياة اليومية بين البشر، فاختار الانحياز إلى الطبيعة وسحرها، وآمن أن في الطبيعة قوى أكثر جدارة

بإضفاء المعنى على الوجود البشري، من تلك القوى المادية التي تستهلك روح الإنسان وجسده. وربما كان هذا هو السبب الحقيقي وراء اعتناقه لفكرة التقمّص منذ المراحل المبكرة من حياته. وهو السبب أيضاً وراء تلك الرومانسية الطاغية التي ترى في عالم الغاب الجنَّةَ الوعودة، حيث لا شرور ولا آثام وليس سوى المحبة والجمال، وهذا ما يفسّر ولعه الشديد بتلك (التيمة) البلاغية الأثيرة التي قلما يخلو منها نص من نصوصه، وهي تجسيد الطبيعة وموجوداتها ككائنات تفيض بالحياة.

ولا ريب في أن ما ورثه جبران من الثقافة العربية يشكّل لبنة رئيسة من لبنات المعمار الجبراني. فقد قرأ الشعر العربي والفلسفة العربية، فأعجب بابن الفارض الذي قال عنه (في شعره ما لم يحلم به الأولون ولم يبلغه المتأخرون). كما فتنته قصيدة ابن سينا في النفس التي يقول عنها: (ليس بين ما نظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدي، وأقرب إلى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس). وبعد أن يقارن بينها وبين أبيات لشكسبير وشيللي وغوته وبراونن يقرر أن (الشيخ الرئيس قد تقدم جميع هؤلاء بقرون عديدة، فوضع في قصيدة واحدة ما هبط بصور متقطعة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة، وهذا ما يجعله نابغة لعصره وللعصور التي جاءت بعده).

كما يبدي إعجابه بالغزالي الذي يعتبره (أقرب إلى جواهر الأمور وأسرارها من القديس أوغوسطينوس).

إلا أن أهم ما ورثه جبران عن الثقافة العربية والشرقية هو تَمَثّلُهُ

لشخصية المخلّص أو (النبي) ولغته ومواقفه. وهو ما يعبّر عنه جبران في إحدى رسائله إلى ماري هاسكل عام1929 حيث يقول (إن الطموح الجوهري للشرقي العظيم هو أن يكون نبيّاً). غير أن الجبرانيّة (على حد تعبير أدونيس في كتابه الثابت والمتحول) هي، جوهرياً، نبوة إنسانية، ويضيف أدونيس (إن الفرق بين النبوة الإلهية والنبوة الجبرانية هي أن النبي في الأولى ينفذ إرادة الله المسبقة، الموحاة، ويعلم الناس ما أوحي له، ويقنعهم به. أما جبران، فيحاول على العكس، أن يفرض رؤياه الخاصة على الأحداث والأشياء، أي وحيه الخاص، وحين نفرغ النبوة من دلالتها الإلهية، نجد أنها الطريقة والغاية لنتاج جبران كله. فجبران يقدم مفهوماً جديداً، ضمن تراث الكتابة الأدبية العربية، للإنسان والحياة).

ولا بدّ من ذكر عامل آخر شديد الأهمية من عوامل التكوين الجبراني، يتجلى فيما نهله جبران من معين الثقافة الغربية ليتمثّله ويصهره مع المكونّات الأخرى لشخصيته وإبداعه.

وحسبنا هنا أن نشير إلى تأثّر جبران بنيتشه وكتابه (هكذا تكلم زرادشت) الذي اعتبره جبران (من أعظم ما عرفته كل العصور)، كما نشير إلى إعجابه بشكسبير وشيللي لأنهما تحررا من (ربقة الماضي)، وكذلك (وليم بليك) الذي يقول عنه: (لن يتسنى لأي امرئ أن يتفهّم بليك عن طريق العقل، فعالمه لا يمكن أن تراه إلا عين العين).

بنية الأدب الجبراني :

أمـا بنيـة الأدب الجـبراني، فتتـألف مـن مزيـج مـن العنـاصر الرومانسية والواقعية والصوفية والثورية والحداثية، التي استطاع جبران أن يؤالف بينها في توليفة سحرية، لا تتأتى إلا لمبدع كبير حقاً. فأدبه رومانسـي وواقعـي وصوفـي وثـوري وحداثـي فـي الوقت نفسه، وإذا كنّا سنفصل بين هذه العناصر فيما يأتي، فما ذلك إلا لغرض دراسي بحت نهدف منه إلى التدليل على وجودها. أما كيف تتجدل هـذه الخيـوط وتتفاعل فيما بينها لتتماهى في النسيج الأدبي لنصوصه، فذلك هو سرّ هذه النكهة الخاصة التي تمنح أعمال جبران فرادتها وخصوصيتها.

الرومانسية

تتجلّى (رومانسية جبران) أكثر ما تتجلّى في تمجيده للإنسان، الذي لا يراه محور الكون، ولبَّ الوجود وحسب، بل إنه يرفعه إلى مصاف الألوهية، إذ إنّ (الإنسانية روح الألوهية على الأرض) على حد تعبيره في نصه (صوت الشاعر).وهو يقول في (نشيد الإنسان): (أنا كنت منذ الأزل، وها أنا ذا، وسأكون إلى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء).

كما يقول في موضع آخر: (على أنني وجدت بين هذه النكبات المخيفة، والرزايا الهائلة ألوهية الإنسان واقفة كالجبّار تسخر بحماقة الأرض وغضب العناصر، ومثل عمود نور منتصبة بين خرائب بابل

ونينوى وتدمر وبمباي وسان فرانسيسكو ترتّل أنشودة الخلود قائلة: لتأخذ الأرض مالها، فلا نهاية لي).

ومن مظاهر رومانسيته أيضاً الاحتفاء بالطبيعة وتمجيد عناصرها، فهي الجنة التي ليس فيها حزن ولا ألم ولا ظلم:

ليس في الغابات حزن — لا ولا فيها الهموم

فإذا هبّ نسيم — لم تجئ معه السموم

ليس في الغابات حرّ — لا ولا العبد الذميم

إنما الأمجاد سخف — وفقاقيع تعوم

لم أجد في الغاب فرقاً — بين نفس وجسد

فالهوا ماء تهادى — والندى ماء ركد

بل ربما كان جبران قد وصل في بعض أبيات هذه القصيدة إلى كتابة أبلغ ما يطمح إليه الرومانسيون في التعبير عن تعبّدهم في محراب الطبيعة، ودعوة الناس إلى العودة إلى أحضانها:

هل تحمّمتَ بعطرٍ — وتنشّفتَ بنور

وشربت الفجر خمراً — في كؤوس من أثير

هل فَرَشْتَ العشبَ ليلاً — وتَلَحَفّتَ الفضا

زاهداً فيما سيأتي — ناسياً ما قد مضى؟

ومن تجليات رومانسيته أيضاً تغنّيه الدائم بالحزن والألم والوحدة، ووَلَعُهُ بمناجاة الليل والقمر والبحر والريح والضباب والسكون والصمت، وشغفه بتجسيد موجودات الطبيعة، وتشخيص العواطف البشرية، وتحويل الكثير من صفحات كتبه إلى مسارح تصول وتجول فيها الأرواح والأشباح والجنيات والساحرات. اسمعه في مقطوعته (أيها الليل) يقول: (ياليل العشاق والشعراء والمنشدين، يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة، يا ليل الشوق والصبابة والتذكار. أيها الجبّار الواقف بين أقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر، المتقلّد سيف الرهبة، المتوّج بالقمر، المتّشح بثوب السكوت، الناظر بألف عين إلى أعماق الحياة، المصغي بألف أذن إلى أنّة الموت والعدم).

الواقعيّة

وتبدو (واقعيّة) جبران واضحة في قراءته المتعمّقة لأحوال الواقع، وما يعجّ به من مآس ومظالم وآلام، ومعالجته لكل ذلك في قصصه وكتاباته، مشخصاً العلّة في كل حالة، وداعياً إلى مجابهتها ومقاومتها، في سبيل تنقية العالم من الشرور والآثام، وجعله أكثر جدارة بالإنسان.

فهو يبني قصته (مرتا البانية) على مقولة أن المرأة الداعرة، قد لا تكون سوى فتاة فقيرة سحقها الظلم الاجتماعي ورمى بها الفقر والحرمان إلى الدرك الذي آلت إليه. لذلك يقول لها جبران: (إي يا مرتا، أنت زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبئ في الهياكل البشرية).

أما قصة (يوحنا المجنون)، فقد بناها على ما أدركه في الواقع من أن الرجال الذين يتسترون بإهاب الدين، قد لايكونون أقل وحشية وقدرة على ظلم الآخرين وسلبهم أرزاقهم وحريتهم من غيرهم من الطغاة والمجرمين.

كما ان قصة (وردة الهاني) يمكن اعتبارها المعادل الأدبي لما كان يجري ولا يزال- في الواقع، من قهر للمرأة، وإرغامها على الزواج بمن لا تحب، لا لشيء إلا لأنه القادر على دفع الثمن. أما عواطف المرأة ومشاعرها وحقها في الاختيار فهي أمور يضرب بها المجتمع عرض الحائط، مما يؤدي إلى تلك المآسي التي مازالت تتكرر حتى اليوم في مجتمعاتنا. وهكذا يمكن للقارئ أن يجد الأساس الواقعي لكل قصص جبران الأخرى، مثل صراخ القبور، ومضجع العروس، وخليل الكافر والأجنحة المتكسرة وغيرها.

وتتضح (واقعيّة) جبران أيضاً في تفاعله مع القضايا السياسية اليومية التي يعاني منها أبناء أمته الرازحين تحت نير الاستعمار التركي، فهو ما فتئ يحرّضهم على الثورة على الاحتلال، ويحذرهم من مغبة التعاون مع الحكم التركي، ويؤكد أن لاسبيل أمامهم لانتزاع حريتهم سوى بالاعتماد على الذات، وإن الاتحاد هو السلاح الأمضى في مواجهة أعدائهم.

وفي مقالته (الأمم وذواتها) يعيد الثقة بنهضة الذات العربية حين يقول (أما الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها

الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام، ولم تتمخّض بالنبي محمد حتى انتصبت كالجبّار وثارت كالعاصفة متغلبة على كل مايقف في سبيلها، ولما بلغت العباسيين تربّعت على عرش منتصب فوق قواعد لا عداد لها أوّلها في الهند وآخرها في الأندلس، ولما بلغت عصارى نهارها وكانت الذات المغولية، قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق إلى الغرب كرهت الذات العربية يقظتها، فنامت ولكن نوماً خفيفاً متقطعاً، وقد تعود وتفيق ثانية لتبيّن ما كان خفيّاً في نفسها كما عادت الذات الرومانية في زمن النهضة الإيطالية المعروفة بالرنسانس).

وكان جبران يواكب جميع الأحداث التي تمرُّ بأمته، فعندما اعتقل الأتراك عدداً من الثوّار عام 1911 كتب عن (الانحطاطية المطلقة) للأتراك، وحين حلّت المجاعة عام1916 كتب نص (مات أهلي)، ونص (في ظلام الليل).

كما كتب نصوصاً متعددة يحضّ فيها أبناء أمته على التخلص من كل ما يعيق نهضتهم وتحررهم، كما في نص (الأضراس المسوسة)، ونص (المخدرات والمباضع) وغيرها.

الصوفيّة

أما (صوفيّة) جبران، فنلمسها في اعتناقه للنهج العرفاني الذي يعتمد الحدس والرؤيا والبصيرة للوصول إلى المعرفة. فإذا كان العقل يرى المظهر الخارجي للأشياء عبر البصر، فإنَّ القلب يرى بالبصيرة

جوهرها الأصل، ويفهم أعمق أعماقها. يقول جبران: (تلك الرؤيا، تلك البصيرة، ذلك التفهم الخاص للأشياء الذي هو أعمق من الأعماق وأعلى من الأعالي).

ولايمكن للمرء أن يصبح رائياً حقيقياً إلا بعد أن يتخطى جدران الحاضر، ويزيل البراقع التي يسدلها الواقع على وجهه، كما أزال (المجنون) في كتاب جبران البراقع، فالتهبت نفسه بمحبة الشمس. يقول جبران (ولما فَصلَتْ تصوّراتي بيني وبين البشريّات وأزاحت تخيّلاتي برقع المادة عن ذاتي المعنوية شعرت بنمو روحي يقرّبني من الطبيعة ويبيّن لي غوامض أسرارها ويفهمني لغة مبتدعاتها).

ومن مظاهر (صوفيته) أيضاً إيمانه بوحدة الوجود، فما الإنسان إلا بضعة من الذات الإلهية. يقول جبران على لسان علي الحسيني في (عرائس المروج): (شعر بأنّ جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متقدة فصلها الله عن ذاته قبيل انقضاء الدهر). فالله فصل شعلة من ذاته، ومن هذه الشعلة كان جوهر النفس البشرية. كما يقول في كتابه(دمعة وابتسامة): وفصل إله الآلهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالاً..وابتسم إله الآلهة وبكى وشعر بمحبة لا حدَّ لها ولا مدى وجمع بين الإنسان ونفسه). والإنسان هو كلمة الله، كما يقول في كتابه(رمل وزبد): (تكلم الله، فكانت كلمته الأولى إنساناً). وإن أحلام الإنسان وعواطفه ما هي إلا جزء من الروح الكلي الخالد، كما جاء في قوله: (ولكن الأجيال التي تمرّ، وتسحق أعمال الإنسان لا تفني

أحلامه، ولا تضعف عواطفه.. فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلي الخالد، وقد تتوارى حيناً وتهجع آونة متشبّهة بالشمس عند مجيء الليل، وبالقمر عند مجيء الصباح). وعندما يصف بطله (يوحنا) في (عرائس المروج) يقول: (ويوحنا يتألم مع الإله الإنسان بالجسد، ويتمجّد معه بالروح).

ولئن كانت غاية الصوفي أن يترفّع عن رغد الحاضر وكدره في سبيل تحقيق غايته الأسمى، وهي الاقتراب من جوار الذات الإلهية، فإن جبران يقول في (المواكب):

فإن ترفَّعتَ عن رغدٍ وعن كَدَرٍ جاورتَ ظلَّ الذي حارَتْ به الفكرُ

كما يقول في موضع آخر(ليس الجهاد في الطبيعة سوى شوق عدم النظام إلى النظام)، ويقيناً فإن هذه العبارة تبدو، وكأنها خارجة من أحد كتب المتصوفة الكبار.

الثوريّة

وربما كانت (الثوريّة) هي السمة الأكثر نصاعة من سمات الأدب الجبراني. فجبران ثائر متمرّد لا يرى للحياة معنى إن لم تكن نضالاً دؤوباً في سبيل الحرية. فالحريّة وحدها هي التي تحقّق إنسانية الإنسان. لذلك نسمعه يتضرع في محرابها: (من أعماق هذه الأعماق نناديك أيتها الحرية فاسمعينا. من جوانب هذه الظلمة نرفع أكفنا نحوك فانظرينا وعلى هذه الثلوج نسجد أمامك فارحمينا) ويقول في

موضع آخر: (أحببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهون، وتتسع باتساع إدراكي خضوعهم للأصنام المخيفة التي نحتتها الأجيال المظلمة، ونصّبتها الجهالة المستمرة).

و لأن جبران ثائر حقيقي، فقد كان لا بدَّ له من أن يحرّض على الثورة على كل ما يستلب الحرية، أو ينتقص منها، وعلى كل من يمارس الاضطهاد والاستغلال، ويبث الآثام والشرور، ويعيق ممارسة الإنسان لحقه الطبيعي في التمتع بالخير والعدل والجمال.

ولذلك يعلن جبران ثورته على الحكّام والأمراء ورجال الدين والإقطاعيين والأغنياء الذين يتحالفون فيما بينهم ضد جماهير الفقراء والمستضعفين، وهو يرى في تحالفهم الأسود هذا (علّة مزمنة قابضة بأظفارها على عنق الجامعة البشرية).

يقول جبران: (ابن الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفقراء الضعفاء، والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسلمين. الأمير يقبض على ذراعيّ الفلاح المسكين والكاهن يمدّ يديه إلى جيبه. الحاكم ينظر إلى أبناء الحقول عابساً والمطران يلتفت نحوهم مبتسماً، وبين عبوسة النمر وابتسامة الذئب يفنى القطيع. الحاكم يدّعي تمثيل الشريعة والكاهن يدّعي تمثيل الدين، وبين الاثنين تفنى الأجساد، وتضمحلّ الأرواح).

ولم يكن جبران مجرّد مصلح اجتماعي، بل كان ثوريّاً حقيقياً ومتمرّداً أصيلاً. لذلك امتدّت ثورته لتشمل كل ما من شأنه الحد من

حرية الإنسان مهما بلغ من قدسية أو رسوخ. فوجد أن أسس الظلم الاجتماعي تكمن في استغلال الشريعة لتبرير السيطرة على جموع الشعب، لذلك قال (الشريعة، وما هي الشريعة؟ مَن رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء؟ وأي بشري رأى قلب الله، فعلم مشيئته في البشر؟ وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين: احرموا الضعفاء نور الحياة، وافنوا الساقطين بحدّ السيف، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد؟).

كما ثار على العادات والتقاليد، ورأى أن التمسك بموروث الماضي البالي ما هو إلا موت حقيقي. يقول جبران: (ان بليّة الأبناء في هبات الآباء، ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات) كما يقول: (وأغرب ما لقيت من أنواع العبوديات، وأشكالها العبودية العمياء، وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم، وتنيخ نفوسهم أمام تقاليد جدودهم، وتجعلهم أجساداً جديدة لأرواح عتيقة، وقبوراً مكلسة لعظام بالية).

وتتجلى ثوريّة جبران في مواقفه السياسية، ولاسيما في دعوته أبناء أمته إلى الثورة من أجل التحرر من النير العثماني. فهو يقول في رسالة له إلى ماري هاسكل عام1911 بعد أن بلغته أخبار من سورية بوجود من يدعو إلى التعاون مع الحكم التركي: (أحاول أن أبشّر السوريين الذين يعتمدون على الحكم الجديد في تركيا، بأن يعتمدوا على الذات.. أريدهم أن يعرفوا أن عرش السلطان الجبار مبني على رمل رطب. لماذا يركعون أمام صنم ملوث مادام أمامهم فضاء لا حدَّ له).

وحين عقد مؤتمر باريس لبحث قضيّة الحكم الذاتي في سورية، وكان من المقرّر حضور جبران هذا المؤتمر كمندوب عن السوريين في أمريكا، رفض الحضور، لأن وجهة نظره كانت رفض الدبلوماسية التي لن تؤدي إلا إلى وضع سورية، والبلاد العربية تحت حماية أجنبية جديدة. ويؤكد جبران أن ليس أمام العرب سوى أن يعلنوا الثورة، فبالثورة وحدها يمكن لهم أن ينتصروا.

وفي معالجة جبران للعلل التي تعاني منها الأمة كان يرفض أيضاً أي منهج إصلاحي فهو يقول: (في فم الأمة السورية أضراس بالية سوداء قذرة ذات رائحة كريهة، وقد حاول أطباؤنا تطهيرها وحشوها بالميناء، وإلباس خارجها رقوق الذهب، ولكنها لاتشفى، ولن تشفى بغير الاستئصال).

وحين قامت الثورة السوفياتية الاشتراكية أعلن فرحه، وقال في رسالة إلى (ماري هاسكل) سنة1917: (إن الذات العتيقة للجنس البشري آخذة في الموت السريع، والذات الجديدة آخذة بالانبثاق كجبّار فتي). وقال (وجميع القياصرة، وجميع الأباطرة في العالم كله لن يستطيعوا أن يجعلوا الزمن يمشي إلى الخلف).

الحداثة

أما حداثة جبران فلا تقتصر على ما قام به من هدم لأفكار الماضي البالية، التي تكبّل الإنسان وتعيق تقدمه وتطوره، ومن زعزعة

للأسس التي يقوم عليها الاستغلال والاضطهاد، ومن تبشير برؤيا جديدة يصبح فيها الإنسان سيّد مصيره، وسيّد الطبيعة من حوله، رؤيا تقوم على الحريّة والحب والعدل والجمال. بل إن أية نظرة إلى الإنجاز الجبراني تبقى ناقصة إذا لم تدرك أنه كان إيذاناً بثورة الحداثة التي سوف تنقل الكتابة العربية من حال إلى حال، أو كما يقول (أدونيس): (تبقى أهمية جبران الأولى في أنه سلك طريقاً لم تعرفها الكتابة العربية.. فلم تعد الكتابة العربية، بدءاً منه، تتأمل ذاتها في المرايا اللفظية، بل أصبحت تنغمس في العذاب والبحث، والتطلع، ومن هنا امتلأت بالحيوية..). ولذلك يعتبره أدونيس (مؤسساً لرؤيا الحداثة، ورائداً أوّل في التعبير عنها).

تقوم حداثة جبران على رفضه للمفهوم التقليدي للشعر، فالشاعر ليس من يستخدم الكلام العادي، ويصبّه في قالب مسبق الصنع ليصف مظاهر الأشياء. وهو ليس من يلمُّ المعاني المطروحة على قارعة الطريق ليتخيّر لها الألفاظ المناسبة، ويجّود في سبكها، ويقيم لها وزنها. بل الشاعر هو من يرى ما وراء الأشياء، ويغوص إلى الأعماق. هو من (يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراء الدنيا، ويغلق أذنيه عن ضجة الأرض ليسمع أغاني اللانهاية) حسب وصف جبران لابن الفارض.

والشعر هو قول ما لا يمكن للغة الكلام العادية أن تقوله، وهو ما يعبّر عنه جبران في العبارة التالية: (في أعماق نفسي أغنية لا ترتضي الألفاظ ثوباً. أغنية تقطن حبّة قلبي، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على

الورق). فلغة الكلام العادية لا يمكن أن تصلح للتعبير عما يحسّه الشاعر ويراه. لذلك لا بدّ لكل شاعر من أن يخلق لغته الخاصة به، وهو ما أدركه جبران فقال: (ففي العربية خلقت لغة جديدة داخل لغة قديمة، كانت قد وصلت حدّاً بالغاً من الكمال. لم أبتدع مفردات جديدة بالطبع، بل تعابير جديدة واستعمالات جديدة لعناصر اللغة).

وكما أن لغة الكلام العادية لا تصلح للشعر، فكذلك لا يوجد شكل محدد يمكن له أن يحتوي ما يفجّره الشعر من كشوف ورؤى. فمجال الشعر هو: (الشيء الآخر الأبعد في الإنسان، الشيء الذي لا نفهمه، والذي نسعى لأن نجد شكلاً يعبّر عنه، ولم نجده حتى الآن). حسب تعبيره.

وهكذا كان لا بدّ لجبران من أن يسخر من هؤلاء الذين يعتمدون القوالب الجاهزة والصيغ القديمة: (لو تخيّل الخليل أن الأوزان التي نظم عقودها، وأحكم أوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح، وخيوطاً تعلق عليها أصداف الأفكار لنثر تلك العقود، وفصم عرى تلك الأوصال).

بل إنه يسخر حتى من هؤلاء الذين يحاولون تقليد عمالقة الشعر العربي والنسج على منوالهم، لأنهم بذلك يفتقدون أصالة التعبير عن ذواتهم، ولا ينتجون سوى نسخة ثانية باهتة لانضرة فيها ولا حياة: (ولو تنبّأ المتنبي، وافترض الفارض أن ما كتباه سيصبح مورداً لأفكار عقيمة ومقوداً لرؤوس مشاهير يومنا لهرقا المحابر في محاجر النسيان، وحطّما الأقلام بأيدي الإهمال).

ذلك أن المقلّد لا يكتشف شيئاً، ولا يختلق أمراً، فهو ذاك الذي يسير من مكان إلى مكان على الطريق التي سار عليها ألف قافلة وقافلة على حد تعبير جبران، الذي يقول أيضاً (فإذا كان الشاعر أبا اللغة وأمها، فالمقلد ناسج كفنها وحافر قبرها).

وكان جبران يعي أن ثورته الحداثية على الأشكال القديمة والصيغ الجاهزة والأوزان الموروثة تهدم لكي تبني، وكان يدرك أنه لا بدّ للمجددين من امتلاك مواهب جبارة لإنجاز حداثتهم: (أما الآن فأنا أريد الأشياء الجبارة التي تدمّر كيما تبني بناءً نبيلاً).

وأخيراً، هل استطاع جبران أن ينجز فيما كتبه من نصوص إبداعية بناء جميع أركان الصرح الحداثي الذي بشّر به؟ بالطبع لا. فتلك مهمة منوطة بحركة الحداثة العربية برمتها، التي مازالت تعمل على إنجازها حتى اليوم. ألم يقل هو نفسه: (جئت لأقول كلمة وسأقولها، وإذا أرجعني الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد.. والذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة).

وحسب جبران أنه كان برقاً مبكّراً من البروق التي أضاءت فضاء الأدب العربي المعاصر، وأضرمت فيه نار الحداثة والإبداع.

د. نزار بريك هنيدي

عَرائِسُ المُروج

كتاب جبران الثاني

دراسة تحليليّة

ما أن مرّت سنة أو أكثر بقليل، على صدور كتاب الموسيقا، حتى أصدر جبران في نيويورك كتابه الثاني (عرائس المروج) عام 1906، ويتضمّن ثلاثة نصوص هي: (رماد الأجيال والنار الخالدة)، و(مرتا البانية)، و(يوحنا المجنون).

وإذا كانت هذه النصوص قد أخذت شكل (القصّة)، حيث يقوم كلٌّ نص منها على حكاية لها زمانها ومكانها وشخوصها، إلا أنني أعتقد أن جبران لم يكن يقصد أن يخوض غمار كتابة القصة الفنّية كشكل أدبي إبداعي، وصل به الأدب الغربي في عصر جبران (أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين) إلى ذروة شاهقة من ذراه، بقدر ما كان يقصد أن يجعل من الحكاية منبراً لتوصيل أفكاره وآرائه ومعتقداته.

فجبران، هذا الشاب الموهوب الطموح الذي استطاع أن يطلّع على ثقافات الشعوب المختلفة، ويمتلكها امتلاكاً يتيح له توظيفها في نصوصه، كما رأيناه يوظّف أساطير الشعوب ومعتقداتها في كتابه الأول (الموسيقا)، والذي يعيش وسط صخب الحياة الأدبية في نيويورك، لا يمكن له إلا أن يكون قد قرأ الكثير من نماذج القصة الغربية، واطلع على شروطها الفنيّة. وفي مقدّمة هذه الشروط إخفاء معتقدات المؤلف وآرائه، وعدم التصريح بالهدف المباشر للقصة، إذا كان لها هدف أصلاً غير المتعة الأدبية والتذوّق الفني الجمالي، وترك الشخصيّات تنمو نموّاً طبيعيّاً يوجبه تطور الحدث، لا رغبة المؤلف.

ومن الواضح أن جبران في قصصه هذه لا يلتزم بشيء من ذلك، بل إنَّ القصة عنده تقوم أساساً على الأفكار المسبقة التي يزمع قولها، بحيث تصبح الأفكار هي أبطال القصة، بينما الحكاية والشخصيات والزمان والمكان ما هي سوى (ديكور) للمسرح التي تتحرك عليه الأفكار، أو (كومبارس) يردّد ما تقوله. وهذا ما سنتبيّنه عند دراستنا لكل نص من هذه النصوص الثلاثة فيما يلي:

1-رماد الأجيال والنار الخالدة :

يتألف هذا النص من لوحتين منفصلتين، تعمّد جبران أن يصدّر كلاً منهما بالتاريخ الدال على زمنها. فهو لا يلمّح إلى الزمن داخل نسيج السرد، ولا يترك للقارئ فرصة استنتاجه بنفسه، بل يعلّقه على صدر

كل لوحة ليكون أول ما تطالعه عين القارئ. وما ذلك إلا لأن الزمن هو العنصر الرئيس الذي تقوم عليه فكرة النص، فيُعَنْوِنُ اللوحة الأولى بالتاريخ التالي: (في خريف 116 قبل الميلاد)، ويُعَنْوِنُ الثانية بالتاريخ الآخر (في ربيع سنة1890 لمجيء يسوع الناصري).

ترسم اللوحة الأولى صورة (ناثان) بن (حيرام) كاهن هيكل عشتروت في مدينة الشمس (بعلبك) منحنياً فوق سرير عروسه التي استبدّ بها المرض حتى لفظت أنفاسها بين ذراعي حبيبها قبل أن يتمتّعا بحبّهما وشبابهما ، فيهيم ناثان على وجهه مع أسراب الغزلان في البريّة البعيدة.

أما اللوحة الثانية فترسم صورة راع من قبيلة (الحسينيين) العربية التي تسكن الخيام في سهول بعلبك، يمشي بين خرائب الهيكل القديم، وأمامه صبيّة تنحني على حافة الجدول لتملأ جرّتها. وفي حالة من (اليقظة الروحيّة) يكتشفان أنهما (ناثان) وعروسه، وقد عادت روحاهما إلى هذه الحياة بعد قرون، لتصلا ما قطعه الموت بينهما.

من الواضح إذاً إن النصّ مركّبٌ في الأساس على فكرة (التقمّص)، وما تقسيمه إلى لوحتين إلا من قبيل إظهار الفارق بين الزمنين، على طريقة (ما قبل) و(ما بعد).

وإذا كان الكثير من الناس لا يرون في فكرة (التقمّص) إلا مجرّد أوهام وتخيّلات، فإن علينا أن لا ننسى أنها فكرة شائعة في لبنان. حيث تشكل جزءاً من معتقدات بعض سكّانه. لذلك يروي

الناس-حتى يومنا هذا- الكثير من حكايات التقمص المشابهة لحكاية (ناثان) وعروسه، وأغلب ظنّي أن جبران استقى فكرة نصّه مما سمعه منها.

إلا أن الأمر لم يتوقّف عند هذا الحدّ، فسوف يعتنق جبران فكرة التقمّص اعتناقاً حقيقيّاً لأنه وجدها تنسجم مع إيمانه بوحدة الوجود، حيث الأرواح والأجساد والكائنات والأشياء، ما هي إلا تجليّات للجوهر الواحد المبدع الأزلي. لذلك فهي لا يمكن أن تموت أو تفنى، وإنما تنتقل من حال إلى حال. كما أنه، وهو الظامئ أبداً إلى العدل، وجد فيها عزاءً عن السؤال الخالد الذي ما فتئ يقضّ مضجعه ومضجع جميع المفكرين والمصلحين الاجتماعيين، عن الذنب الذي اقترفه مَنْ يولَدُ في بيئة الفقر والبؤس والعذاب، في مقابل من يولد رافلاً في أثواب الجاه والنعيم. فبالإيمان بالتقمّص يصبح من اليسير فهم أن هذه الأحوال المختلفة، ما هي غير أدوارٍ، على كل فرد أن يؤدّيها في حياة من حيواته المتعاقبة.

وقد بلغ من إيمان جبران بالتقمص أنه –حسب قول ميخائيل نعيمة- (ما كان يحسب ولادته في شمالي لبنان مصادفة عمياء، بل كان يعتقدها نتيجة لحياة سابقة).

كما أنه حاول أن يجد سنداً لإيمانه هذا بأن أورد في هامش نص (رماد الأجيال والنار الخالدة) الآية الكريمة: (وكنتم أمواتاً فأحياكم، ثم يميتكم، ثم يحييكم، ثم إليه ترجعون). وقول بوذا:

(كنا بالأمس في هذه الحياة وقد جئنا الآن وسوف نعود حتى نصير كاملين مثل الآلهة).

ورغم أن الحكاية التي بنى عليها جبران نصّه تقوم بشكل رئيس على فكرة التقمّص، إلا أنه يلجأ أيضاً إلى عرض فلسفته في الوجود والحب، عرضاً لا يختلف عما يمكن أن نطالعه في كتب الفلسفة المجرّدة.

فجوهر النفس البشرية، ما هي إلا شطر من شعلة متقدة فصلها لله عن نفسه (وحدة الوجود)، وذات الإنسان مركّبة من ذات مقتبسة، هي الذات الخارجية التي تقتبسها النفس لتتجسّد فيها، وذات معنوية خفية، هي الجوهر الأصل المترفّع عن الشرائع الدنيوية. وإلى هذه الذات المعنوية تنتسب الأحلام والعواطف، لذلك فهي تبقى خالدة ببقاء الروح الكلّي الخالد. ولا يمكن للإنسان أن يتبيّن غوامض الوجود ومستتراته إلا إذا انصرف عن المحسوسات، وانتابته حالة اليقظة الروحيّة التي تزيل حجاب الواقع عن عينيه وتعيد إليهما النور. فالمعرفة الحقيقيّة لا تتم إلا بالرؤيا والتفكير والتأمّل.

أما الحبّ في فلسفته، فهو الذي يبيح مكنونات النفس للنفس، ويفصل بتفاعيله بين العقل وعالم المحسوسات (عالم المقاييس والكميّة). وهو الوحيد القادر على قهر الموت، والبقاء عندما تخرس ألسنة الحياة. وهو الذي يبقى منتصباً كعمود النور عندما تحجب الظلمة كلَّ الأشياء. ولذلك فإن الكلام العادي الذي يتداوله البشر عن الحب لا

يمكن له أن يعبّر عنه تعبيراً حقيقيّاً ، فالحب يأبى أن يكون مجرد روح لأجساد من الألفاظ.

2-مرتا البانية :

يروي هذا النص حكاية من الحكايات التي تتكرّر كل يوم. فـ(مرتا) الفتاة الفقيرة اليتيمة تقع بين براثن أحد الأغنياء الذي يستلب شرفها ، ثم يرمي بها في مهاوي الذلّ بعد أن حملت منه ، ولم يكن أمامها لتكسب قوتها وقوت ابنها سوى أن تبيع جسدها ، إلا أن نفسها بقيت طاهرة تطلب الغفران والرحمة حتى فارقت الحياة.

وكما هو الحال في النص السابق، لم تكن الحكاية سوى (ذريعة) تتيح لجبران أن يقول أفكاره حول المجتمع البشري، ويعلن انحيازه إلى حياة الطبيعة البسيطة في مواجهة حياة المدن والحضارة الزائفة، وإلى جانب الفقراء ضد الأغنياء.

فهو يرى أن تيّار المدنيّة الحديثة قد جرف البشر بعيداً عن الحياة الجميلة البسيطة المملوءة طهراً ونقاوة. وأن حياة المدن جعلتنا عبيد مطامعنا ، فهي وإن زادتنا مالاً إلا أنها لم تزدنا راحة أو سعادة، بل جعلتنا نشرب كأس الحياة ممزوجة بمرارة اليأس والخوف والملل.

ويقرن جبران بين رفضه للمدنيّة الحديثة ، وبين رفضه لمعطيات العلوم المجرّدة التي تسترق أحلام الشباب. ويدعو إلى الجمع بين أحلام

الشبيبة ولذّة المعرفة. ويتطلّع إلى اليوم الذي تصبح فيه الطبيعة معلّمة ابن آدم، والإنسانيّة كتابه، والحياة مدرسته.

ومن الجليّ إنه في كل ذلك يقتفي أثر الحركة الرومانسية، لاسيّما حين يؤكد على أن الارتقاء الروحي هو إدراك جمال الكائنات بواسطة عواطف النفوس، واستدرار السعادة بمحبة ذلك الجمال، كما يؤكد أن النفس هي حلقة ذهبيّة مفروطة من سلسلة الألوهيّة، ولذلك لا يمكن لأدران الجسد أن تلامسها.

ويرى جبران أن الظلم الاجتماعي سببه انقسام المجتمع إلى طبقتين هما: الفقراء والأغنياء. فالظالم هو ابن القصور، ذو المال الكثير والنفس الصغيرة، الذي تخلّى عن كل ما يربطه بالإنسانية وأضحى مجرد حيوان في هيكل بشري، يدوس بأقدامه الفقراء والمستضعفين، ويستر بشاعة ميوله وحيوانيّة مرامه بالكلام اللطيف. أما المظلوم فهو دائماً الفقير، الذي جعله الفقر غريباً في أرض مولده، إلا أنه يبقى ذا نفس كبيرة طاهرة، بالرغم من مكابدته للجوع والبرد والوحدة.

الفقير هو شهيد الحيوان المختبئ في الإنسان، وهو الزهرة المسحوقة تحت الأقدام. لذلك فهو لا يختار ارتكاب الخطيئة، ولكن الظالمين يجرّونه نحوها جرّاً، كما فعلوا بـ(مرتا) التي أردوا بها في مهاوي الخطيئة لتعيل ولدها، ولكن ذلك لا يعني أنها أصبحت دنسة وإن وضعتها الحياة بين أيدي الدنسين، لأن أدران الجسد لا تلامس النفس النقية، والثلوج المتراكمة لا تميت البذور الحيّة.

ولا يختتم جبران نصّه هذا إلا بعد أن يشير إلى التحالف البغيض القائم بين الظالمين الأغنياء، وبين رجال المؤسسة الدينيّة. فالكهّان يرفضون الصلاة على بقايا (مرتا) ولا يقبلون أن ترتاح عظامها في الجبّانة حيث الصليب يخفر القبور. هؤلاء الكهّان الذين يستخدمون الدين ستاراً ووسيلة لتحقيق مطامعهم الدنيوية، هم الذين سيعمل جبران على فضح ممارساتهم في نصه الثالث.

3-يوحنّا المجنون :

رأى جبران من خلال قراءته للواقع، أن الظلم الاجتماعي لا يقتصر على اضطهاد الأغنياء للفقراء فحسب، بل هو كامن في جميع أركان مؤسسة السلطة. ولاسيّما رجال الدين الذين يستخدمون أقدس ما في الحياة لتعميم شرور الحياة، وبدل أن يعملوا على نشر تعاليم السماء التي تحضّ على العدل والرحمة، يحتكرون المعرفة بها، وينهون البسطاء عن استطلاع خفاياها، بل ويبثّون من على منابرهم تعاليم غير التعاليم التي يمكن قراءتها في الكتب المقدسة، ويعيشون حياة هي غير الحياة التي بشّر بها الرسل والأنبياء.

فالكّهان يتمتعون براحة التواني والكسل، ويتلذّذون بثمار الحقول والكروم، بينما يعاني الفقراء ذلّ العوز والمرض والقهر. وهم لا يكتفون بما لديهم، بل يمدّون أيديهم كما تمدّ الأفاعي رؤوسها، ويقبضون على ما وفّرته الأرملة من عمل يديها، وما أبقاه الفلاح لأيام شيخوخته.

لذلك كان لا بدّ لجبران من أن يتساءل على لسان بطله (يوحنا):
(هل يبيع الفقير حقله منبت خبزه، ومورد حياته ليضيف ثمنه إلى خزائن الدير المفعمة بالفضّة والذهب؟ أمن العدل أن يزداد الفقير فقراً ويموت المسكين جوعاً؟). وأن يصرخ في وجوه هؤلاء الكهنة: (ويل وألف ويل لكم أيها الخاضعون لأصنام مطامعكم، الساترون بالأثواب السوداء اسوداد مكروهاتكم، المحركون بالصلاة شفاهكم وقلوبكم جامدة كالصخور، الراكعون بتذلل أمام المذابح ونفوسكم متمردة على الله). ويتضرّع إلى يسوع أن يأتي ثانية ليطرد باعة الدين من هياكله، فقد جعلوها مغاور تتلوّى فيها أفاعي روغهم واحتيالهم، بعد أن اغتصبوا من الضعفاء ما لهم وما لله. فهل يتمجّد الله في الأعالي بأن تلفظ اسمه الشفاه الأثيمة والألسنة الكاذبة؟ وهل على الأرض سلام وأبناء الشقاء يفنون قواهم ليطعموا فم القوي ويملؤوا جوف الظالم؟ وهل المسّرة في أن يشتري الأمير بفضلات الفضّة قوى الرجال وشرف النساء، وبأن نسكت ونبقى عبيداً بالنفس والجسد لمن يدهشون أعيننا بلمعان ذهب أوسمتهم وبريق حجارهم وأطالس ملابسهم؟

ويتطرّق جبران إلى علاقة الاستبداد بالخضوع الأعمى، ويتساءل أيهما كان مولّداً للآخر؟ في إشارة إلى الفقراء بأن خضوعهم الأعمى، هو الذي يزيد من شوكة الاستبداد الذي يمارسه الكهان، وحلفاؤهم الذين يتمثّلون في الأئمة والزعماء والأغنياء، الذين يقابلونهم بالأناشيد المصدّرة بالمديح والمذيّلة بالتبجيل،كما يتمثّلون في الحاكم وشرطته الذين لا همّ لهم سوى قمع كل من يثور على الظلم والاضطهاد.

وفـي الحقيقـة، فإن النـص يكـاد يكـون بأكملـه خطاباً شـديد البلاغة يجّرد رجال الدين من أقنعتهم الزائفة ويظهر حقيقة ممارساتهم وموبقاتهم. أما حكاية الراعي (يوحنا) الذي سجنه الرهبان، لأن قطيعه رعى في أراضي الدير، فما هي إلا من قبيل تهيئة أذهان القرّاء أو المستمعين لتلقّي خطاب بهذه الخطورة، يقتحم موضوعاً محّرماً، كان يعتبر مجرّد التفكير فيه نوعاً من الهرطقة أو الزندقة. ولذلك لا يهتمّ جبران بالشروط الفنيّة للقصة، التي كانت توجب عليه ألا ينطق بطله الراعي البسيط بخطاب لا يمكن أن يقوله إلا من كان في موهبة وبلاغة جبران نفسه. وهو الأمر الذي رأيناه أيضاً في نصه السابق، حيث يضع على لسان (مرتا) كلاماً لا ينسجم إطلاقاً مع معطيات شخصيّتها المسكينة. وهذا ما يؤكد لنا أن جبران في كتابه (عرائس المروج) لم يكن قصّاصاً يبدع نصوصاً قصصية، وإنما كان-كما سيكون في كتبه اللاحقة-فيلسوفاً وحكيماً. وما استخدامه للحكايات إلا من القبيل نفسه الذي استخدم فيه يسوع الناصري القصص والأمثال لتبليغ أفكاره وشرح تعاليمه.

د. نزار بريك هنيدي
دمشق 2002/5/27

إهداء

إلى التي تحدق إلى الشمس بأجفان جامدة،

وتقبض على النار بأصابع غير مرتعشة،

وتسمع نغمة الروح.

جبران

رماد الأجيال والنار الخالدة

1

توطئة

(في خريف 116 قبل الميلاد)

سكن الليل، ورقدت الحياة في مدينة الشمس[1]، وأُطفئت السرج في المنازل المنتثرة حول الهياكل العظيمة القائمة بين أشجار الزيتون والغار، وطلع القمر فانسكبت أشعته على بياض الأعمدة الرخامية المنتصبة كالجبابرة تخفر في هدوء الليل مذابح الآلهة، وتنظر تيهاً وإعجاباً نحو بروج لبنان الجالسة في الوعر على جبهات الروابي البعيدة.

في تلك الساعة المملوءة بسحر الهدوء الموحدة بين أرواح النيام وأحلام اللانهاية، جاء ناثان ابن الكاهن حيرام، ودخل هيكل

---

[1] هي بعلبك أي مدينة بعل إله الشمس، وقد دعاها الأقدمون مدينة الشمس (هليوبوليس) لأنها بنيت لعبادة هذا الإله، وقد اتفق المؤرخون على أنها كانت أجمل مدينة في سورية. أما الخرائب الباقية إلى يومنا هذا فأكثرها من بناء الرومانيين بعد فتحهم سورية.

عشتروت[2] حاملاً مشعلاً، وبيد مرتجفة أنار المسارج، وأوقد المباخر فتصاعدت روائح المر واللبان، ووشحت تمثال المعبودة بنقاب لطيف يشابه برقع الأماني المحيط بالقلب البشري، ثمّ ركع أمام المذبح المصفّح برقوق العاج والذهب ورفع يديه، ونظر نحو العلاء، ومن عينيه الدموع تستدرّ الدموع، وبصوت تخفضه الغصّات الأليمة وتقطعه اللوعة القاسية صرخ قائلاً: رحماكِ يا عشتروت العظيمة رحماكِ يا ربّة الحبّ والجمال، ترأفي بمشيئتك... لقد نبت أعاصير الأطباء ومساحيقهم، وباطلاً ضاعت تعازيم الكهّان والعرّافين، ولم يبقَ لي غير اسمك المقدّس عوناً ومساعداً، فاستجيبي تضرّعاتي، وانظري انسحاق قلبي وتوجّع عواطفي، وابقي شطر نفسي حيّاً بجانبي، لنفرح بأسرار محبّتك، ونسعد بجمال الشبيبة المعلنة خفايا مجدك. من هذه الأعماق أصرخ إليكِ يا عشتروت المقدّسة. من وراء ظلمة هذا الليل أستجير بحنانك. فاسمعيني أنا عبدك ناثان ابن الكاهن حيرام الذي وقف عمره على خدمة مذبحك قد أحببت صبية من بين الصبايا واتخذتها رفيقة فحسدتنا عرائس الجان[3] ونفثن في جسدها اللطيف لهاث علّة غريبة، ثمّ بعثنّ رسول المنايا ليقودها إلى مغاورهنّ السحريّة، وها هو الآن رابض

---

[2] هي ربة عظيمة عند قدماء الفينيقيين عبدوها في صور وصيدا وجبيل وبعلبك، وبعض صفاتها قولهم: موقدة شعلة الحياة، وحارسة الشبيبة، وقد أخذ اليونان عبادتها من الفينيقيين ودعوها افروديت ربة الحب والجمال، والرومان يدعونها فينيس.

[3] كانت العرب في الجاهلية تقول: إن الجنية إذا تعشقت فتى من الإنس منعته من الزواج، وإن فعل سحرت عروسته أو أماتتها، وهذه الاعتقادات الشعرية، ما برحت حيّة في بعض قرى لبنان.

بقـرب مضجعـها، يزمجـر كـالنمر الجـائع، مخيّمـاً عليـها بأجنحتـه السوداء، مادّاً مقابضه الخشنة ليغتالها من بين ضلوعي. من أجل ذلك جئت إليك متذلّلاً، فارحميني، وابقيها زهرة لم تفرح بعد بجمال صيف الحياة، وطائراً لم يكمل تغريدة مسرّته لمجيء فجر الشبيبة. أنقذيها من بين أظفار الموت، فنبتهج بأغاني مدائحك، مقدّمين المحروقات لمجد اسمك، ناحرين الضحايا على مذبحك، مالئين بالخمر القديمة والزيت المطيّب آنية خزائنك، فارشين بالورود والياسمين رواق هيكلك، محرقين البخور والعود الذكي الرائحة أمام تمثالك. خلّصينا يا ربّة المعجزات ودعي المحبّة تغلب الموت، فأنت ربّة الموت والمحبّة.

وسكت دقيقة كانت فيها لوعته تسيل دموعاً، وتتصاعد تنهداً، ثمّ عاد فقال: أواه! لقد تضعضعت أحلامي يا عشتروت المقدّسة، وذابت حشاشتي، ومات قلبي في داخلي، والتهبت دموعي في عيني، فأحييني بالرأفة وأبقي لي حبيبتي. ودخل ذاك عبد من عبيده، واقترب منه ببطء، وهمس في أذنه هذه الكلمات: لقد فتحت عينيها يا سيّدي، ونظرت حول مضجعها فلم ترَك، ثمّ نادتك بلجاجة، فجئت لأدعوك إليها.

فقام ناثان ومشى مسرعاً والعبد يتبعه، ولما بلغ صرحه دخل حجرة العليلة وانحنى فوق سريرها آخذاً يدها النحيلة بين يديه مقبّلاً شفتيها مراراً، كأنّه يريد أن ينفخ في جسدها السقيم حياة جديدة من حياته، فحوّلت نحوه وجهها الغارق بين المساند الحريريّة، وفتحت أجفانها قليلاً، وظهر على شفتيها خيال ابتسامة هي بقيّة الحياة في

جسدها اللطيف، هي آخر أشعّة من نفسها المودّعة هي صدى نداء القلب المتسارع نحو الوقوف، ثمّ قالت ومقاطع صوتها تشابه أنفاس طفل الفقيرة الجائع: قد نادتني الآلهة يا عريس نفسي، وجاء الموت ليفصلني عنك، فلا تجزع لأن مشيئة الآلهة مقدّسة، ومطالب الموت عادلة. أنا ذاهبة الآن وكأسا الحبّ والشبيبة، ما برحتا طافحتين في أيدينا، ومسالك الحياة الجميلة ما زالت منبسطة أمامنا. أنا راحلة يا حبيبي إلى مسارح الأرواح وسوف أعود إلى هذا العالم، لأنّ عشتروت العظيمة ترجع إلى هذه الحياة أرواح المحبّين الذين ذهبوا إلى الأبديّة قبل أن يتمتّعوا بملذّات الحبّ وغبطة الشبيبة[1]. سوف نلتقي يا ناثان، ونشرب معاً ندى الصباح من كؤوس النرجس، ونفرح مع عصافير الحقل بأشعّة الشمس. إلى اللقاء يا حبيبي.

وانخفض صوتها وبقيت شفتاها ترتجفان مثل زهرة أقاح ذابلة أمام نسيمات الفجر، فضمّها حبيبها وبلّل عنقها بالعبرات، ولما قرّب شفتيه من ثغرها وجده بارداً كالثلج، فصرخ صراخاً هائلاً ومزّق ثوبه، وارتمى على جثّتها الهامدة وروحه المتوجّعة تراوح بين لجج الحياة وهاوية الموت.

في هدوء ذلك الليل ارتجفت أجفان الراقدين، وجزعت نساء الحيَّ

---

[1] قال الله تعالى: (وكنتم أمواتاً، فأحياكم، ثم يميتكم، ثم يحييكم، ثم إليه ترجعون).

وقال بوذا الهندي: كنا بالأمس في هذه الحياة، قد جئنا الآن، وسوف نعود حتى نصير كاملين مثل الآلهة.

بنواح، وذعرت أرواح الأطفال، إذ تبطّنت ملابس الدجى بنواح موجع وبكاء مر وعويل أليم متصاعد من جوانب قصر كاهن عشتروت.

ولما جاء الصباح طلب القوم ناثان ليعزّوه ويؤاسوه في مصيبته فلم يجدوه.

وبعد أيّام جاءت قافلة من المشرق أخبر زعيمها أنّه رأى ناثان تائهاً في البريّة البعيدة هائماً مع أسراب الغزلان.

*   *   *

مرّت الأجيال ساحقة بأقدامها الخفيّة أعمال الأجيال، وبعدت الآلهة عن البلاد، وحلّ مكانها آلهة غضوب يلذّ لها الهدم، ويبهجها التخريب، فدُكّت هياكل مدينة الشمس الفخمة، وتقوّضت قصورها الجميلة ويبست حدائقها النضرة، وأجدبت حقولها الخصبة، ولم يبق في تلك البقعة غير طللٍ بالٍ يعيد للذاكرة أشباح الأمس فيؤلمها، ويرجع للنفس صدى تهاليل المجد القديم فيحزنها.

ولكن الأجيال التي تمرّ وتسحق أعمال الإنسان لا تفني أحلامه، ولا تضعف عواطفه.

فالأحلام والعواطف، تبقى ببقاء الروح الكلّي الخالد، وقد تتوارى حيناً، وتهجع آونة متشبّهة بالشمس عند مجيء الليل، وبالقمر عند مجيء الصباح.

2

في ربيع سنة 1890 لمجيء يسوع الناصري

توارى النهار واضمحلّ النور، ولمّت الشمس وشاحها عن سهول بعلبك، فعاد عليّ الحسيني[1] أمام قطيعه نحو خرائب الهيكل، وهناك جلس بين الأعمدة الساقطة كأنّها أضلع جندي متروك مزّقتها الهيجاء وجرّدتها العناصر، فربضت أغنامه حوله مستأمنة بأنغام شبّابته.

انتصف الليل، وألقت السماء بذور الغد في أعماق ظلمته، فتعبت أجفان عليّ من أشباح اليقظة، وكلّت عاقلته من مرور مواكب الأخيلة السائرة بسكينة مخيفة بين الجدران المهدومة، واتكأ على زنده، واقترب النعاس، ولامس حواسه بأطراف ثنايا نقابه مثلما يلامس الضباب اللطيف وجه البحيرة الهادئة، فنسي ذاته المقتبسة والتقى بذاته المعنويّة الخفيّة المفعمة بالأحلام المترفّعة عن شرائع الإنسان وتعاليمه، واتّسعت دوائر الرؤيا أمام عينيه، وانبسطت له خفايا الأسرار، فانفردت نفسه عن موكب الزمن المتسارع نحو اللاشيء ووقفت وحدها أمام

[1] الحسينيون قبيلة من العرب تسكن الخيام في سهول بعلبك في أيامنا هذه.

الأفكار المتناسقة والخواطر المتسابقة، ولأوّل مرّة في حياته عرف، أو كاد يعرف أسباب المجاعة الروحيّة الملاحقة شبيبته. تلك المجاعة التي توحّد بين حلاوة الحياة ومرارتها. ذلك الظمأ الجامع بين تأوّه الحنين وسكينة الاستكفاء. ذلك الشوق الذي لا تزيله أمجاد العالم ولا تثنيه مجاري العمر. لأوّل مرّة في حياته شعر عليّ الحسيني بعاطفة غريبة أيقظتها خرائب الهيكل. عاطفة رقيقة هي الذكرى بمنزلة البخور من المجامر. عاطفة سحريّة قد انعكفت على حواسه انعكاف أنامل الموسيقي على صفوف الأوتار. عاطفة جديدة قد انبثقت من اللاشيء، أو من كلّ شيء، ونمت وتدرّجت حتى عانقت كلّيته المعنويّة، وملأت نفسه بشغف مدنف بلطفه وتوجّع مستعذب بمرارته مستطيب بقساوته. عاطفة تولّدت من خلايا دقيقة واحدة مفعمة بالنعاس، ومن دقيقة واحدة تتولد رسوم الأجيال مثلما تتناسل الأمم من نطفة واحدة.

نظر علي نحو الهيكل المهدوم، وقد تبدّل النعاس بيقظة روحي، فظهرت بقايا المذبح المخدّشة، واتضحت أماكن الأعمدة المرتمية وأسس الجدران المتداعية، فجمدت عيناه، وخفق قلبه مثل ضرير عاد النور إلى عينيه فجأة، فصار يرى ويفكّر ويتأمّل يفكّر ويتأمّل- ومن تموّجات التفكّر ودوائر التأمّل تولّدت في نفسه أشباح الذكرى، فتذكّر تذكّر تلك الأعمدة منتصبة بفخر وعظمة. تذكّر المسارج والمباخر الفضيّة محيطة بتمثال معبودة مهابة. تذكر الكهّان الوقورين يقدّمون الضحايا أمام مذبح مصفّح بالعاج والذهب. تذكّر الصبايا الضاربات الدفوف والفتيان المترنّمين بمدائح ربّة الحبّ والجمال. تذكّر ورأى هذه

الصور متضحة لبصيرته المتكهربة، وشعر بتأثيرات غوامضها تحرّك سواكن أعماقه. ولكن الذكرى لا تعيد غير أشباح الأجسام التي نراها فيما غبر من أعمارنا، ولا يرجع إلى مسامعنا إلاّ صدى الأصوات التي وعتها آذاننا. فأيّة علاقة بين هذه التذكارات السحريّة وماضي حياة فتى ولد بين المضارب، وصرف ربيع عمره يرعى قطيعاً من الغنم في البريّة؟.

قام عليّ ومشى بين الحجارة المتقوّضة، وتذكاراته البعيدة تزيح أغشية النسيان عن مخيّلته مثلما تزيل الصبية نسيج العنكبوت عن بلّور مرآتها. حتى إذا ما بلغ صدر الهيكل وقف كأنّ في الأرض جاذباً يتمسك بقدميه، فنظر وإذا به أمام تمثال مهشّم ملقى على الحضيض، فركع بجانبه على غير هدى وعواطفه تتدفّق في أحشائه مثلما يتسارع نزيف الدماء من جوانب الكلوم البليغة، ونبضات قلبه تتكاثر وتتهامل مثل أمواج البحر المتصاعدة المنخفضة، فخشع بصره وتأوّه بمرارة وبكى بكاء أليماً لأنّه شعر بوحدة جارحة وبعاد متلف فاصل بين روحه وروح جميلة كانت بقربه قبل مجيئه إلى هذه الحياة.

شعر بأن جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متّقدة فصلها الله عن ذاته قبيل انقضاء الدهر.

شعر بحفيف أجنحة لطيفة ترفرف بين أضلعه الملتهبة وحول لفائف دماغه المنحلّة.

شعر بالحبّ القوي العظيم يشمل قلبه، ويمتلك أنفاسه، ذلك

الحبّ الذي يبيح مكنونات النفس للنفس، ويفصل بتفاعيله بين العقل وعالم المقاييس والكمية، ذلك الحبّ الذي نسمعه متكلّماً عندما تخرس ألسنة الحياة، ونراه منتصباً كعمود النور عندما تحجب الظلمة كلّ الأشياء. ذلك الحبّ، ذلك الإله قد هبط في تلك الساعة الهادئة على نفس عليّ الحسيني وأيقظ فيها عواطف حلوة ومرَّة مثلما تستنبت الشم الزهور بجانب الأشواك.

ولكن ما هذا الحبّ، ومن أين أتى، وماذا يريد من فتى رابض مع قطيعه بين تلك الهياكل الرميمة؟ ما هذه الخمرة السائلة في كبد لم تحرّكها قط لواحظ الصبايا؟ وما هذه الأغنية السماوية المتموّجة في مسامع بدوي لم يطربه بعد شدو النساء؟.

ما هذا الحبّ، ومن أين أتَى، وماذا يريد من عليّ المشغول عن العالم بأغنامه وشبّابته؟ هل هي نواة ألقتها محاسن بدويّة بين أعشار قلبه على غير معرفة من حواسه، أم هو شعاع كان محتجباً بالضباب، وقد ظهر الآن لينير خلايا نفسه؟ هل هو حلم سعى في سكينة الليل ليسخر بعواطفه، أم هي حقيقة كانت منذ الأزل وستبقى إلى آخر الدهر؟.

أغمض عليّ أجفانه المغلفة بالدموع، ومدّ يديه كالمتسوّل المستعطف، وارتعشت روحه في داخله ومن ارتعاشاتها المتواصلة انبثقت الزفرات المتقطّعة المؤلفة بين تذلّل الشكوى، وحرقة الشوق، وبصوت لا يميزه عن التنهّد غير رنّات الألفاظ الضعيفة هتف قائلاً:

مَن أنتِ أيّتها القريبة من قلبي، البعيدة عن ناظري، الفاصلة بيني وبيني، الموثقة حاضري بأزمنة بعيدة منسيّة، أطيف حوريّة جاءت من عالم الخلود لتبيّن لي بُطلْ الحياة، وضعف البشر، أم روح مليكة الجان تصاعدت من شقوق الأرض لتسترق مني عاقلتي وتجعلني سخرية بين فتيان عشيرتي؟ من أنتِ وما هذا الفتون المميت المحيي القابض على قلبي؟ وما هذه المشاعر المالئة جوانحي نوراً وناراً؟ ومن أنا وما هذه الذات الجديدة التي أدعوها (أنا) وهي غريبة عني؟ هل تجرّعْت ماء الحياة مع دقائق الأثير، فصرت ملاكاً أرى، وأسمع خفايا الأسرار، أم هي خمر وساوس سكرت بها فتعاميت عن حقائق المعقولات؟.

وسكت دقيقة وقد نمت عواطفه، وتسامت روحه فقال: يا من تبينها النفس وتدنيها ويحجبها الليل ويقصيها أيّتها الروح الجميلة الحائمة في فضاء أحلامي، فقد أيقظتِ في باطني عواطف كانت نائمة مثل بذور الزهور المختبئة تحت أطباق الثلج، ومررّت كالنسيم الحامل أنفاس الحقول، ولامست حواسي فاهتزّت واضطربت كأوراق الأشجار! دعيني أراكِ إن كنت لابسة من المادة ثوباً، أو مري النوم أن يغمض أجفاني، فأراكِ بالمنام إن كنتِ معتوقة من التراب. دعيني ألمسك. أسمعيني صوتك. مزّقي هذا النقاب الحاجب كلّيتي، واهدمي هذا البناء الساتر ألوهيّتي وهبيني جناحاً فأطير وراءك إلى مسارح الملإ الأعلى إن كنت من سكّانها أو لامسي عيني بالسحر، فأتبعك إلى مكامن الجان إن كنت من عرائسها. ضعي يدك الخفيَّة على قلبي وامتلكيني إن كنتُ حريّاً باتّباعك.

كان عليّ يهمس في آذان الدجى كلماته المتناسخة عن صدى نغمة متمايلة في أعماق صدره، وبين ناظره، ومحيطه تنسل أشباح الليل كأنّها متولّدة من مدامعه السخينة، وعلى جدران الهياكل تتمثّل له صور سحريّة بألوان قوس قزح.

كذا مرّت ساعة وهو فرح بدموعه، مغتبط بلوعته، سامع نبضات قلبه، ناظر إلى ما وراء الأشياء، كأنّه يرى رسوم هذه الحياة تضمحلّ ببطء، ويحلّ مكانها حلم غريب بمحاسنه هائل بهواجسه، ومثل نبي يتأمل نجوم السماء مترقّباً هبوط الوحي صار ينتظر مآتي الدقائق وتنهيداته المسرعة توقف أنفاسه الهادئة، ونفسه تتركه وتسبح حوله ثمّ تعود إليه كأنّها تبحث بين تلك الخرائب عن ضائع عزيز.

* * *

لاح الفجر وارتجفت السكينة لمرور نسيماته وسال النور البنفسجي بين دقائق الأثير، وابتسم الفضاء ابتسامة نائح لاح له في الحلم طيف حبيبته، فظهرت العصافير من شقوق جدران الخرائب، وصارت تتنقل بين تلك الأعمدة وتترنّم، متنبّئة بمآتي النهار. فانتصب عليّ واضعاً يده على جبهته الملتهبة، ونظر حوله بطرف جامد، ومثل آدم عندما فتحت عينيه نفخة الله صار ينظر مستغرباً كلّ ما يراه، ثمّ اقترب من نعاجه وناداها، فقامت وانتفضت ومشت وراءه بهدوء نحو

المروج الخضراء. سار عليّ أمام قطيعه وعيناه الكبيرتان محدّقتان إلى الفضاء الصافي وعواطفه المنصرفة عن المحسوسات تبيّن له غوامض الوجود ومستتراته، وتريه ما غبر من الأجيال وما بقي منها بلمحة واحدة، وبلمحة واحدة تنسيه كلّ ذلك، وتعيد إليه الشوق والحنين، فيجد ذاته منحجباً عن روح روحه وانحجاب العين عن النور، فيتنهّد ومع كلّ تنهيدة تنسلخ شعلة من فؤاده المتقد.

بلغ الجدول المذيع بخريره سرائر الحقول، فجلس على ضفته تحت أغصان الصفصاف المتدلية إلى المياه كأنّها تروم امتصاص عذوبتها، وانثنت نعاجه ترتعي الأعشاب وندى الصباح يتلمّع على بياض صوفها، ولم تمرّ دقيقة حتى شعر بتسارع نبضات قلبه وتضاعف اهتزازات روحه، ومثل راقد أجفلته أشعة الشمس تحرّك، وتلفّت حوله فرأى صبيّة قد ظهرت من بين الأشجار تحمل جرّة على كتفها، وتتقدّم على مهل نحو الغدير، وقد بلّل الندّى قدميها العاريتين.

ولمّا بلغت حافة الجدول وانحنت لتملأ جرّتها التفتت نحو الحافة المقابلة، فالتقت عيناها بعيني علي، فشهقت ورمت بالجرّة ثمّ تراجعت قليلاً إلى الوراء وشخصت به شخوص ضائع وجد من يعرفه.. مرّت دقيقة كانت ثوانيها مثل مصابيح تهدي قلبيهما إلى قلبيهما مبتدعة من السكينة أنغاماً غريبة تعيد إلى نفسيهما صدى تذكارات مبهمة وتبيّن الواحد منهما للآخر في غير ذلك المكان محاطاً بصور وأشباح بعيدة عن ذلك الجدول وتلك الأشجار، فكان كلّ منهما ينظر إلى الآخر

نظرة الاستعطاف، ويتفرّس فيه مستلطفاً ملامحه مصغياً لتنهداته بكلّ ما في عواطفه من المسامع، مناجياً إيّاه بكلّ ما في نفسه من الألسنة، حتى إذا ما تمّ التفاهم، وتكامل التعارف بين الروحين عبر علي الجدول مجذوباً بقوّة خفيّة واقترب من الصبية وعانقها وقبّل شفتيها وقبّل عنقها وقبّل عينيها فلم تبدِ حراكاً بين ذراعيه كأنّ لذّة العناق قد انتزعت منها إرادتها، ورقّة الملامسة قد أخذت منها قواها، فاستسلمت استسلام أنفاس الياسمين لتموّجات الهواء، وألقت رأسها على صدره كمتعب وجد راحة، وتنهدت تنهيدة عميقة تشير إلى حدوث انبساط في فؤاد منقبض وتعلن ثورات جوانح كانت راقدة فأفاقت، ثمّ رفعت رأسها، ونظرت إلى عينيه نظرة من يستصغر الكلام المتعارف بين البشر بجانب السكينة لغة الأرواح نظرة من لا يرضى بأن يكون الحبّ روحاً في أجساد من الألفاظ.

مشى الحبيبان بين أشجار الصفصاف ووحدانيّة كليهما لسان ناطق بتوحيدهما، ومسمع منصت لوحي المحبّة، وعين مبصرة مجد السعادة، تتبعهما الخراف مرتعية رؤوس الأعشاب والزهور، وتقابلهما العصافير من كل ناحية مرتلة أغاني السحر!

ولما بلغا طرف الوادي، وكانت الشمس قد طلعت وألقت على تلك الروابي رداء مذهباً، جلسا بقرب صخرة يحتمي البنفسج بظلّها، وبعد هنيهة نظرت الصبيّة في سواد عيني علي وقد تلاعب النسيم بشعرها كأن النسيم شفاه خفيّة تروم تقبيلها، وشعرت بأنامل سحريّ

تداعب لسانها وشفتيها رغم إرادتها، فقالت وفي صوتها حلاوة جارحة:

- قد أعادت عشتروت روحينا إلى هذه الحياة كيلا نحرم ملذات الحبّ، ومجد الشبيبة يا حبيبي!

فأغمض عليّ أجفانه وقد استحضرت موسيقا كلماتها رسوم حلم طالما رآه في نومه، وشعر بأجنحة غير منظورة قد حملته من ذلك المكان وأوقفته في حجرة غريبة الشكل بجانب سرير ملقى عليه جثمان امرأة جميلة، أخذ الموت بهاءها وحرارة شفتيها، فصرخ ملتاعاً من هول المشهد، ثمّ فتح أجفانه فوجد تلك الصبيّة جالسة بجانبه وعلى شفتيها ابتسامة محبّة وفي لحظها أشعة الحياة، فأشرق وجهه، وانتعشت روحه، وتضعضعت أخيلة رؤياه ونسي الماضي ومآتيه...

تعانق الحبيبان وشربا من خميرة القبل حتى سكرا، ونام كلّ منهما ملتفاً بذراعي الآخر إلى أن مال الظلّ، وأيقظتهما حرارة الشمس.

مرتا البانية[1]

1

مات والدها وهي في المهد، وماتت أمّها قبل بلوغها العاشرة، فتُركت يتيمة في بيت جار فقير يعيش مع رفيقته، وصغاره من بذور الأرض، وثمارها في تلك المزرعة المنفردة بين أودية لبنان الجميلة.

مات والدها ولم يورثها غير اسمه وكوخ حقير قائم بين أشجار الجوز والحور، وماتت أمّها، ولم تترك لها سوى دموع الأسى وذلّ التيتّم، فباتت غريبة في أرض مولدها، وحيدة بين تلك الصخور العالية والأشجار المحتبكة، وكانت تسير في كلّ صباح عارية القدمين رثّة الثوب وراء بقرة حلوب إلى طرف الوادي حيث المرعى الخصيب، وتجلس بظلّ الأغصان مترنّمة مع العصافير، باكية مع الجداول، حاسدة البقرة على وفرة المأكل، متأمّلة بنمو الزهور ورفرفة الفراشات، وعندما تغيب الشمس ويضنيها الجوع ترجع نحو ذلك الكوخ، وتجلس مع صبية وليّها ملتهمة خبز الذرة مع قليل من الثمار المجفّفة والبقول المغموسة بالخل والزيت، ثمّ تفترش القشّ اليابس مسندة رأسها بساعديها وتنام متنهدة

---

[1] نسبة إلى بان وهي قرية جميلة في شمال لبنان.

متمنية لو كانت الحياة كلّها نوماً عميقاً لا تقطعه الأحلام ولا تليه اليقظة، وعند مجيء الفجر ينتهرها وليّها لقضاء حاجة، فتهبّ من رقادها مرتعدة خائفة من سخطه وتعنيفه.

كذا مرّت الأعوام على مرتا المسكينة بين تلك الروابي والأودية البعيدة، فكانت تنمو بنمو الأنصاب، وتتولّد في قلبها العواطف على غير معرفة منها مثلما يتولّد العطر في أعماق الزهرة، وتتتابها الأحلام والهواجس مثلما تتناوب القطعان مجاري المياه، فصارت صبية ذات فكرة تشابه تربة جيّدة عذراء لم تُلق بها المعرفة بذوراً ولا مشت عليها أقدام الاختبار، وذات نفس كبيرة طاهرة منفيّة بحكم القدر إلى تلك المزرعة حيث تتقلّب الحياة مع فصول السنة كأنّها ظلّ إله غير معروف جالس بين الأرض والشمس.

نحن الذين صرفوا معظم العمر في المدن الآهلة، نكاد لا نعرف شيئاً عن معيشة سكّان القرى والمزارع المنزوية في لبنان، قد سرنا مع تيّار المدنيّة الحديثة حتى نسينا، أو تناسينا فلسفة تلك الحياة الجميلة البسيطة المملوءة طهراً ونقاوة، تلك الحياة التي إذا ما تأمّلناها وجدناها مبتسمة في الربيع، مثقلة في الصيف، مستغلة في الخريف، مرتاحة في الشتاء، متشبّهة بأمّنا الطبيعة في كلّ أدوارها. نحن أكثر من القرويّين مالاً، وهم أشرف منّا نفوساً. نحن نزرع كثيراً ولا نحصد شيئاً، أمّا هم فيحصدون ما يزرعون. نحن عبيد مطامعنا، وهم أبناء قناعتهم. نحن نشرب كأس الحياة ممزوجة بمرارة اليأس والملل، وهم يرتشفونها صافية.

بلغت مرتا السادسة عشرة، وصارت نفسها مثل مرآة صقيلة تعكس محاسن الحقول، وقلبها شبيهاً بخلايا الوادي يرجع صدى كلّ الأصوات... ففي يوم من أيّام الخريف المملوءة بتأوّه الطبيعة، جلست بقرب العين المنعتقة من أسر الأرض انعتاق الأفكار من مخيّلة الشاعر تتأمّل باضطراب أوراق الأشجار المصفرّة وتلاعب الهواء بها مثلما يتلاعب الموت بأرواح البشر، ثمّ تنظر نحو الزهور فتراها قد ذبلت، ويبست قلوبها حتى تشقّقت، وأصبحت تستودع التراب بذورها مثلما تفعل النساء بالجواهر والحلي أيّام الثورات والحروب.

وبينما هي تنظر إلى الزهور والأشجار، وتشعر معها بألم فراق الصيف، سمعت وقع حوافر على حصباء الوادي، فالتفتت وإذا بفارس يتقدّم نحوها ببطء، ولما اقترب من العين وقد دلّت ملامحه وملابسه على ترف وكياسة، ترجّل عن ظهر جواده، وحيّاها بلطف ما تعوّدته من رجل قطّ، ثم سألها قائلاً: قد تهت عن الطريق المؤدية إلى الساحل، فهل لك أن تهديني أيّتها الفتاة؟ فأجابت وقد وقفت منتصبة كالغصن على حافة العين: لست أدري يا سيّدي ولكني أذهب وأسأل وليّي فهو يعلم. قالت هذه الكلمات بوجل ظاهر وقد أكسبها الحياة جمالاً ورقّة، وإذ همّت بالذهاب أوقفها الرجل وقد سرت في عروقه خمرة الشبيبة وتغيّرت نظراته وقال: لا، لا تذهبي. فوقفت في مكانها مستغربة شاعرة بوجود قوّة في صوته تمنعها عن الحراك. ولما اختلست من الحياء نظرةً إليه رأته يتأمّلها باهتمام لم تفقه له معنى، ويبتسم لها بلطف سحري يكاد يبكيها لعذوبته، وينظر

بمودّة وميل إلى قدميها العاريتين ومعصميها الجميلين وعنقها الأملس وشعرها الكثيف النَّاعم، ويتأمّل بافتتان وشغف كيف لوّحت الشمس بشرتها وقوّت الطبيعة ساعديها، أمّا هي فكانت مطرقة خجلاً لا تريد الانصراف، ولا تقوى على الكلام لأسباب لا تدركها.

في ذلك المساء رجعت البقرة الحلوب وحدها إلى الحظيرة، أما مرتا فلم ترجع، ولما عاد وليّها من الحقل بحث عنها بين تلك الوهاد، ولم يجدها، فكان يناديها باسمها ولا تجيبه غير الكهوف وتأوّهات الهواء بين الأشجار، فرجع مكتئباً إلى كوخه وأخبر زوجته فبكت بسكينة طول ذلك الليل، وكانت تقول في سرّها: رأيتها مرّة في الحلم بين أظافر وحش كاسر يمزق جسدها وهي تبتسم وتبكي!

هذا إجمال ما عرفته عن حياة مرتا في تلك المزرعة الجميلة، وقد تخبرته من شيخ قروي عرفها مذ كانت طفلة حتى شبّت، واختفت من تلك الأماكن غير تاركة خلفها سوى دموع قليلة في عيني امرأة وليّها، وذكرى رقيقة مؤثرة تسيل مع نسيمات الصباح في ذلك الوادي، ثمّ تضمحلّ كأنها لهاث طفل على بلّور النافذة.

2

جاء خريف سنة 1900 فعدت إلى بيروت بعد أن صرفت العطلة المدرسيّة في شمال لبنان، وقبل دخولي إلى المدرسة قضيت أسبوعاً

كاملاً أتجوّل مع أترابي في المدينة متمتّعين بغبطة الحريّة التي تعشقها الشبيبة، وتحرمها في منازل الأهل، وبين جدران المدرسة، فكنّا أشبه بعصافير رأت أبواب الأقفاص مفتوحة أمامها فصارت تشبع القلب من لذّة التنقل وغبطة التغريد، والشبيبة حلم جميل تسترق عذوبته معميات الكتب وتجعله يقظة قاسية، فهل يجيء يوم يجمع فيه الحكماء بين أحلام الشبيبة، ولذّة المعرفة مثلما يجمع العتاب بين القلوب المتنافرة؟ هل يجيء يوم تصبح فيه الطبيعة معلمة ابن آدم، والإنسانية كتابه، والحياة مدرسته، هل يجيء ذلك اليوم؟ لا ندري، ولكنّنا نشعر بسيرنا الحثيث نحو الارتقاء الروحي، وذلك الارتقاء، هو إدراك جمال الكائنات بواسطة عواطف نفوسنا واستدرار السعادة بمحبتنا ذلك الجمال.

ففي عشيّة يوم وقد جلست على شرفة المنزل أتأمّل العراك المستمر في ساحة المدينة، وأسمع جلبة باعة الشوارع ومناداة كلّ منهم عن طيب ما لديه من السلع والمآكل، اقترب مني صبي ابن خمس يرتدي أطماراً بالية، ويحمل على منكبيه طبقاً عليه طاقات الزهور. وبصوت ضعيف يخفضه الذلّ الموروث، والانكسار الأليم قال:

- أتشتري زهراً يا سيّدي؟

فنظرت إلى وجهه الصغير المصفّر، وتأمّلت عينيه المكحولتين بأخيلة التعاسة والفاقة، وفمه المفتوح قليلاً كأنّه جرح عميق في صدر متوجّع، وذراعيه العاريتين النحيلتين، وقامته الصغيرة المهزولة المنحنية على طبق الزهور كأنّها غصن من الورد الأصفر الذابل بين الأعشاب

النضرة، تأمّلتُ كلّ هذه الأشياء بلمحة مظهراً شفقتي بابتسامات هي أمرّ من الدموع، تلك الابتسامات التي تنشقّ من أعماق قلوبنا، وتظهر على شفاهنا ولو تركناها وشأنها لتصاعدت وانسكبت من مآقينا. ثمّ ابتعت بعض زهوره وبغيتي ابتياع محادثته لأنني شعرت بأن من وراء نظراته المحزنة قلباً صغيراً ينطوي على فصل من مأساة الفقراء الدائم تمثيلها على ملعب الأيّام، وقلّ من يهتم بمشاهدتها لأنها موجعة. ولما خاطبته بكلمات لطيفة استأمن واستأنس ونظر إليّ مستغرباً لأنّه مثل أترابه الفقراء لم يتعوّد غير خشن الكلام من أولئك الذين ينظرون غالباً إلى صبية الأزقّة كأشياء قذرة لا شأن لها، وليس كنفوس صغيرة مكلومة بأسهم الدهر. وسألته إذ ذاك قائلاً:

- ما اسمك؟

فأجاب وعيناه مطرقتان إلى الأرض:

- اسمي فؤاد!

قلت: ابن من أنت وأين أهلك؟

قال: أنا ابن مرتا البانيّة.

قلت: وأين والدك؟

فهزّ رأسه الصغير كمن يجهل معنى الوالد. فقلت:

- وأين أمّك يا فؤاد؟

قال: مريضة في البيت.

تجرّعتْ مسامعي هذه الكلمات القليلة من فم الصبي وامتصّتها عواطفي مبتدعة صوراً وأشباحاً غريبة محزنة لأنّي عرفت بلحظة أن مرتا المسكينة التي سمعت حكايتها من ذلك القرويّ، هي الآن في بيروت مريضة. تلك الصبيّة التي كانت بالأمس مستأمنة بين أشجار الأودية هي اليوم في المدينة تعاني مضض الفقر والأوجاع، تلك اليتيمة التي صرفت شبيبتها على أكفّ الطبيعة ترعى البقر في الحقول الجميلة قد انحدرت مع جرف نهر المدينة الفاسدة وصارت فريسة بين أظفار التعاسة والشقاء.

كنت أفكّر وأتخيّل هذه الأشياء والصبي ينظر إليّ كأنّه رأي بعين نفسه الطاهرة انسحاق قلبي. ولمّا أراد الانصراف أمسكت بيده قائلاً:

- سر بي إلى أمك، لأنّي أريد أن أراها!

فسار أمامي صامتاً متعجباً، من حين إلى آخر كان ينظر إلى الوراء ليرى إذا كنت بالحقيقة متّبعاً خطواته.

في تلك الأزقّة القذرة حيث يختمر الهواء بأنفاس الموت، بين تلك المنازل البالية حيث يرتكب الأشرار جرائمهم مختبئين بستائر الظلمة، وفي تلك المنعطفات الملتوية إلى اليمين وإلى الشمال التواء الأفاعي السوداء كنت أسير بخوف وتهيّب وراء صبي له من حداثته ونقاوة قلبه شجاعة لا يشعر بها من كان خبيراً بمكايد أجلاف القوم في مدينة يدعوها الشرقيون عروس سورية ودرّة تاج السلاطين، حتى إذا ما بلغنا

أذيال الحي دخل الصبي بيتاً حقيراً لم تبق منه السنون غير جانب متداعٍ. فدخلت خلفه وطرقات قلبي تتسارع كلّما اقتربت حتى صرت في وسط غرفة رطبة الهواء ليس فيها من الأثاث غير سراجٍ ضعيف يغالب الظلمة بسهام أشعّته الصفراء، وسرير حقير يدلّ على عوز مبرح، وفقر مدقع منطرحة عليه امرأة نائمة، قد حوّلت وجهها نحو الحائط كأنها تحتمي به من مظالم العالم أو كأنّها وجدت بين جدرانه قلباً أرقّ وألين من قلوب البشر. ولمّا اقترب الصبي منها منادياً: يا أمّاه!.. التفتت إليه، فرأته يومىء نحوي فتحركت، إذ ذاك بين اللحف الرثّة، وبصوت موجع يلاحقه ألم النفس والتنهدات المرَّة قالت:

- ماذا تريد أيّها الرجل؟ هل جئت لتبتاع حياتي الأخيرة، وتجعلها دنسة بشهواتك؟ اذهب عني فالأزقّة مشحونة بالنساء اللواتي يبعنك أجسادهن ونفوسهنّ بأبخس الأثمان. أمّا أنا فلم يبقَ لي ما أبيعه غير فضلات أنفاس متقطّعة، عمّا قريب يشتريها الموت براحة القبر!

فاقتربت من سريرها، وقد آلمت كلماتها قلبي لأنّها مختصر حكايتها التعسة، وقلت متمنياً لو كانت عواطفي تسيل مع الكلام:

- لا تخافي مني يا مرتا، فأنا لم أجيء إليك كحيوان جائع، بل كإنسان متوجع. أنا لبناني عشت زمناً في تلك الأودية والقرى القريبة من غابة الأرز. لا تخافي مني يا مرتا!

سمعتْ كلماتي وشعرت بأنّها صادرة من أعماق نفس تتألّم معها، فاهتزّت على مضجعها مثل القضبان العارية أمام رياح الشتاء،

ووضعـت يديـها علـى وجهـها ، كـأنّـها تريـد أن تسـتـر ذاتـها مـن أمـام الذكرى الهائلة بحلاوتها ، المرّة بجمالها. وبعد سكينة ممزوجة بالتـأوّه ظهر وجهها من بين كتفيها المرتجفتين، فرأيت عينين غائرتين محدقتين إلـى شـيء غـير منظـور منتصـب فـي فضـاء الغرفـة ، وشـفتين يابسـتين تحرّكهما ارتعاشات اليأس، وعنقاً تـتردّد فيـه حشـرجة النـزع المصحوبة بـأنين عميـق متقطّـع، وبصـوت يبثّـه الالتمـاس والاسـتعطاف ويسـترجعه الضعف والألم قالت:

- جئت محسناً مشفقاً ، فلتجـزك السماء عنّي إن كـان الإحسـان على الخطاة برّاً والشفقة على المرذولين صلاحاً ، ولكنّي أطلب إليك أن تعود من حيث أتيت، لأن وقوفك في هـذا المكـان يكسبك عـاراً ومذمّة ، وحنانك عليّ يثمر لك عيباً ومهانة. ارجع قبل أن يراك أحد في هـذه الغرفة الدنسة المملوءة بأقذار الخنازير ، وسر مسرعاً ساتراً وجهك بأثوابك كيلا يعرفك عابرو الطريق. إن الشفقة التي تملأ نفسك لا تعيد إليَّ طهارتي ، ولا تمحو عيوبي ، ولا تزيل يد الموت القوّية عن قلبي. أنا منفيّة بحكم تعاستي وذنوبي إلى هذه الأعماق المظلمة ، فلا تـدع شفقتك تدنيك مـن العيوب. أنـا كـالأبرص السـاكن بـين القبـور ، فـلا تقـترب منّـي ، لأن الجامعـة تحسـبك دنساً وتقصيك عنها إذا فعلت. ارجع الآن ولا تذكر اسمي في تلك الأودية المقدّسـة ، لأن النعجـة الجربـاء ينكرهـا راعيـها خوفـاً علـى قطيعــه. وإذا ذكرتني قل قد ماتت مرتا البانيّة ولا تقل غير ذلك.

ثمّ أخذت يدي ابنها الصغيرتين وقبّلتهما بلهفة وقالت متنهّدة:

- سوف ينظر الناس إلى ولدي بعين السخرية والاحتقار قائلين: هذا ثمرة الإثم، هذا ابن مارتا الزانية، هذا ابن العار، هذا ابن الصدف. سوف يقولون عنه أكثر من ذلك، لأنّهم عميان لا يبصرون، وجهلاء لا يدرون أن أمّه قد طهّرت طفولته بأوجاعها ودموعها، وكفّرت عن حياته بتعاستها وشقائها. سوف أموت وأتركه يتيماً بين صبيان الأزقّة وحيداً في هذه الحياة القاسية، غير تاركة له سوى ذكرى هائلة تخجله إن كان جباناً خاملاً وتُهيّج دمه إن كان شجاعاً عادلاً، فإن حفظته السماء وشبّ رجلاً قوياً ساعد السماء على الذي جنى عليه وعلى أمّه، وإن مات وتملّص من شبكة السنين، وجدني مترقّبة قدومه هناك حيث النور والراحة!

فقلت وقلبي يوحي إليّ: لستِ كالأبرص يا مرتا وإن سكنتِ بين القبور، ولست دنسة وإن وضعتك الحياة بين أيدي الدنسين. إن أدران الجسد لا تلامس النفس النقيَّة، والثلوج المتراكمة لا تميت البذور الحيّة، وما هذه الحياة سوى بيدر أحزان تدرس عليه أغمار النفوس قبل أن تعطي غلّتها، ولكن ويل للسنابل المتروكة خارج البيدر، لأن نمل الأرض يحملها وطيور السماء تلتقطها، فلا تدخل أهراء ربّ الحقل. أنتِ مظلومة يا مرتا وظالمك هو ابن القصور، ذو المال الكثير والنفس الصغيرة. أنت مظلومة ومحتقرة، وخير للإنسان أن يكون مظلوماً من أن يكون ظالماً، وأخلق به أن يكون شهيد ضعف الغريزة الترابيّة من أن يكون قويّاً ساحقاً بمقابضه زهور الحياة، مشوّهاً بميوله محاسن العواطف. النفس يا مرتا هي حلقة ذهبيّة مفروطة من سلسلة الألوهيّة،

فقد تصهر النار الحامية هذه الحلقة، وتغيّر صورتها وتمحو جمال استدارتها، لكنّها لا تحيل ذهبها إلى مادّة أخرى، بل تزيده لمعاناً، ولكن ويل للهشيم، إذ تأتي النار وتلتهمه وتجعله رماداً، ثمّ تهبّ الرياح وتذريه على وجه الصحراء.. إي مرتا، أنتِ زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبئ في الهياكل البشريّة. قد داستك تلك النعال بقساوة، لكنّها لم تخفِ عطرك المتصاعد مع نواح الأرامل، وصراخ اليتامى وتنهيدات الفقراء نحو السماء مصدر العدل والرحمة. تعزّي يا مرتا بكونك زهرة مسحوقة ولست قدماً ساحقة!.

كنت أتكلّم وهي مصغية، وقد أنارت التعزية وجهها المصفّر مثلما تنير أشعة المغرب اللطيفة خلايا الغيوم. ثمّ أومأت إليّ أن أجلس على جانب السرير، ففعلت مسائلاً ملامحها المتكلّمة عن مخبّآت نفسها الحزينة. ملامح من عرف أنّه مائت. ملامح صبيّة في ربيع العمر، قد شعرت بوقع أقدام الموت حول فراشها البالي. ملامح امرأة متروكة كانت بالأمس بين أودية لبنان الجميلة مملوءة حياة وقوّة، فصارت اليوم مهزولة تترقّب الانعتاق من قيود الحياة. وبعد سكينة مؤثرة جمعت فضلات قواها، وقالت ودموعها تتكلّم معها ونفسها تتصاعد مع أنفاسها:

نعم أنا مظلومة، أنا شهيدة الحيوان المختبئ في الإنسان، أنا زهرة مسحوقة تحت الأقدام. كنت جالسة على حافة ذلك الينبوع عندما مرّ راكباً.. قد خاطبني بلطف ورقّة وقال لي، إنّي جميلة، وإنّه قد أحبّني، فلا يتركني، وإن البريّة مملوءة وحشة والأودية هي مساكن الطيور وبنات آوى.. ثمّ ألوى عليّ وضمّني إلى صدره وقبّلني، وكنت لم

أذق حتى تلك الساعة طعم القبلة، لأنّي كنت يتيمة متروكة. أردفني على ظهر الجواد، وجاء بي إلى بيت جميل منفرد، ثمّ أتى بالملابس الحريريّة، والعطور الزكيّة، والمآكل اللذيذة، والمشارب الطيّبة.. فعل كلّ ذلك مبتسماً ساتراً بشاعة ميوله وحيوانيّة مرامه بالكلام اللطيف والإشارات المستحبّة.. وبعد أن أشبع شهواته من جسدي، وأثقل بالذلّ نفسي غادرني تاركاً في أحشائي شعلة حيّة ملتهبة تغذّت من كبدي ونمت بسرعة، ثمّ خرجت إلى هذه الظلمة من بين دخان الأوجاع ومرارة العويل.. وهكذا قسمت حياتي إلى شطرين: شطر ضعيف متألّم، وشطر صغير يصرخ في هدوء الليل طالباً الرجوع إلى الفضاء الواسع. في ذلك البيت المنفرد تركني الظلوم ورضيعي نقاسي مضض الجوع والبرد والوحدة، لا معين لنا غير البكاء والنحيب، ولا سمير سوى الخوف والهواجس..

وعلم رفاقه بمكاني، وعرفوا بعوزي وضعفي، فجاء الواحد بعد الآخر وكلّ يبتغي ابتياع العرض بالمال، وإعطاء الخبز لقاء شرف الجسد.... آه كم قبضت على روحي بيدي لتقديمها للأبديّة، ثمّ أفلتّها لأنّها لم تكن لي وحدي، فشريكي بها كان ولدي الذي أبعدته السماء عنها إلى هذه الحياة مثلما أقصتني عن الحياة، وألقتني في أعماق هذه الهاوية.. والآن ها هي الساعة قد دنت، وعريسي الموت قد جاء بعد هجرانه ليقودني إلى مضجعه النّاعم!

وبعد سكينة عميقة تشابه مس الأرواح المتطايرة، رفعت عينيها المحجوبتين بظلّ المنيّة وقالت بهدوء:

- أيّها العدل الخفيّ، الكامن وراء هذه الصور المخيفة، أنت أنت السامع عويل نفسي المودّعة، ونداء قلبي المتهامل، منك وحدك أطلب وإليك أتضرّع، فارحمني وارع بيمناك ولدي، وتسلّم بيسراك روحي!

وخارت قواها وضعفت تنهداتها، ونظرت إلى ابنها نظرة حزن وحنو، ثمّ ميّلت عينيها ببطء وبصوت يكاد يكون سكينة، قالت: أبانا الذي في السموات.. ليتقدّس اسمك.. ليأتِ ملكوتك.. لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض. اغفر لنا ذنوبنا.

وانقطع صوتها، وبقيت شفتاها متحركتين هنيهة، وبوقوفها همدت كلّ حركة في جسدها. ثمّ اختلجت وتأوّهت وابيضّ وجهها وفاضت روحها، وظلّت عيناها محدقتين إلى ما لا يرى.

عندما جاء الفجر وُضعت جثّة مارتا البانيّة في تابوت خشبي، وحملت على كتفي فقيرين، ودُفنت في حقل مهجور بعيد عن المدينة، وقد رفض الكهّان الصلاة على بقاياها، ولم يقبلوا أن ترتاح عظامها في الجبّانة حيث الصليب يخفر القبور، ولم يشيّعها إلى تلك الحفرة البعيدة غير ابنها، وفتى آخر كانت مصائب الحياة قد علّمته الشفقة.

يوحنا المجنون

1

في أيّام الصيف كان يوحنّا يسير كلّ صباح إلى الحقل سائقاً ثيرانه وعجوله، حاملاً محراثه على كتفيه، مصغياً لتغاريد الشحارير، وحفيف أوراق الأغصان، وعند الظهيرة كان يقترب من الساقية المتراكضة بين منخفضات تلك المروج الخضراء، ويأكل زاده تاركاً على الأعشاب ما بقي من الخبز للعصافير. وفي المساء عندما ينتزع المغرب دقائق النور من الفضاء، كان يعود إلى البيت الحقير المشرف على القرى والمزارع في شمال لبنان، ويجلس بسكينة مع والديه الشيخين مصغياً لأحاديثهما المملوءة بأخبار الأيّام شاعراً بدنّو النعاس والراحة معاً.

وفي أيّام الشتاء كان يتكئ مستدفئاً بقرب النار، سامعاً تأوه الأرياح وندب العناصر، مفكّراً بكيفيّة تتابع الفصول، ناظراً من الكوّة الصغيرة نحو الأودية المكتسية بالثلوج، والأشجار العارية من الأوراق، كأنّها جماعة من الفقراء تُركوا خارجاً بين أظفار البرد القارس، والرياح الشديدة.

وفي الليالي الطويلة كان يبقى ساهراً حتى ينام والده، ثمّ يفتح الخزانة الخشبية ويأتي بكتاب العهد الجديد، ويقرأ منه سرّاً على نور مسرجة ضعيفة، متلفّتاً بتحذّر بين الآونة والأخرى نحو والده النائم الذي منعه عن تلاوة ذلك الكتاب، لأن الكهنة ينهون بسطاء القلب عن استطلاع خفايا تعاليم يسوع، ويحرمونهم من نعم الكنيسة إذا فعلوا.

هكذا صرف يوحنا شبيبته بين الحقل المملوء بالمحاسن والعجائب، وكتاب يسوع المفعم بالنور والروح. كان سكوتاً كثير التأمّلات يصغي لأحاديث والديه، ولا يجيب بكلمة، ويلتقي بأترابه الفتيان، ويجالسهم صامتاً ناظراً إلى البعيد حيث يلتقي الشفق بازرقاق السماء. وإذا ما ذهب إلى الكنيسة عاد مكتئباً، لأن التعاليم التي يسمعها من على المنابر والمذابح هي غير التي يقرؤها في الإنجيل، وحياة المؤمنين مع رؤسائهم، هي غير الحياة الجميلة التي تكلّم عنها يسوع الناصري.

* * *

جاء الربيع واضمحلّت الثلوج في الحقول والمروج، وأصبحت بقاياها في أعالي الجبال تذوب وتسير جداول في منعطفات الأودية، وتجتمع أنهراً غزيرة تتكلّم بهديرها عن يقظة الطبيعة، فأزهرت أشجار اللوز والتفاح، وأورقت قضبان الحور والصفصاف، وأنبتت الروابي أعشابها وأزاهرها، فتعب يوحنا من الحياة بجانب

المواقد، وعرف أن عجوله قد ملّت ضيق المرابض واشتاقت إلى المراعي الخضراء، لأن مخازن التبن قد شحّت، وزنابل الشعير قد نفدت. فجاء وحلّها من معالفها، وسار أمامها إلى البريّة ساتراً بعباءته كتاب العهد الجديد كيلا يراه أحد، حتى بلغ المرجة المنبسطة على كتف الوادي بقرب حقول الدير القائم كالبرج الهائل بين تلك الهضاب[1]، فتفرّقت عجوله مرتعية الأعشاب، وجلس مستنداً إلى صخرة يتأمّل تارة بجمال الوادي وطوراً بسطور كتابه المتكلّمة عن ملكوت السموات.

كان ذلك النهار من أواخر أيّام الصوم، وسكان تلك القرى المنقطعون عن اللحوم، أصبحوا يترقّبون بفضلات الصبر مجيء عيد الفصح. أمّا يوحنّا، فمثل جميع المزارعين الفقراء، لم يكن يفرّق بين أيّام الصيام وغيرها، فالعمر كلّه كان صوماً طويلاً عنده، وقوته لم يتجاوز قط الخبز المعجون بعرق الجبين، والثمار المبتاعة بدم القلب، فالانقطاع عن اللحوم والمآكل الشهيّة كان طبيعياً. ومشتهيات الصوم لم تكن في جسده بل في عواطفه، لأنّها تعيد إلى نفسه ذكرى مأساه ابن البشر ونهاية حياته على الأرض.

كانت العصافير ترفرف متناجية حول يوحنّا، وأسراب الحمام تتطاير مسرعة، والزهور تتمايل مع النسيم كأنّها تتحمّم بأشعّة الشمس، وهو يقرأ في كتابه بتمعّن، ثمّ يرفع رأسه، ويرى قبب

[1] هو دير غني في شمال لبنان واسع الأراضي، يدعى دير اليشاع النبي، يقطنه عشرات من الرهبان المعروفين بالحلبيين.

الكنائس في المدن والقرى المنثورة على جانبي الوادي، ويسمع طنين أجراسها، فيغمض عينيه، وتسبح نفسه فوق أشلاء الأجيال إلى أورشليم القديمة متّبعة أقدام يسوع في الشوارع سائلة العابرين عنه فيجيبونها قائلين: - هنا شفى العميان وأقام المقعدين، وهناك ضفروا له إكليلاً من الشوك ووضعوه على رأسه في هذا الرواق وقف يكلّم الجموع بالأمثال، وفي ذلك القصر كتّفوه على العمود وبصقوا على وجهه وجلدوه في هذا الشارع غفر للزانية خطاياها، وفي ذاك وقع على الأرض تحت أثقال صليبه.

ومرّت الساعة ويوحنّا يتألّم مع الإله الإنسان بالجسد، ويتمجّد معه بالروح، حتى إذا ما انتصف النهار، قام من مكانه، ونظر حوله، فلم يرَ عجوله، فمشى متلفتاً إلى كلّ ناحية مستغرباً اختفاءها في تلك المروج السهلة. ولما بلغ الطريق المنحنية بين الحقول انحناء خطوط الكفّ، رأى عن بعد رجلاً بملابس سوداء واقفاً بين البساتين، فأسرع نحوه، ولمّا اقترب منه وعرف أنّه أحد رهبان الدير، حيّاه بحني رأسه ثمّ سأله قائلاً: هل رأيت عجولاً سائرة بين هذه البساتين يا أبتاه؟ فنظر إليه الراهب متكلفاً إخفاء حنقه وأجاب بخبث:

نعم رأيتها فهي هناك، تعالَ وانظرها. فسار يوحنّا وراء الراهب حتى بلغا الدير، فإذا بالعجول ضمن حظيرة واسعة موثقة بالحبال يخفرها أحد الرهبان وفي يده نبوت يجلدها به كيفما تحرّكت، وإذ همّ يوحنّا ليقودها أمسك الراهب بعباءته، والتفت نحو رواق الدير،

وصرخ بأعلى صوته: هو ذا الراعي المجرم قد قبضت عليه. فهرول القسس والرهبان من كلّ ناحية يتقدّمهم الرئيس وهو رجل يمتاز عن رفاقه بنحافة أثوابه وانقباض سحنته، وأحاطوا بيوحنّا كالجنود المتسابقة على الفريسة، فنظر يوحنا إلى الرئيس وقال بهدوء: ماذا فعلت لأكون مجرماً، ولماذا قبضتم عليّ؟ فأجابه الرئيس، وقد بانت القساوة على وجهه الغضوب، وبصوت خشن أشبه بصرير المناشير قال: قد ارتعت عجولك زرع الدير، وقضمت قضبان كرومه، فقبضنا عليك لأن الراعي هو المسؤول عمّا تخربه مواشيه. فقال يوحنّا مستعطفاً: هي بهائم لا عقل لها يا أبتاه، وأنا فقير، لا أملك غير قوى ساعدي وهذه العجول، فاتركني أقودها، وأسر واعداً إيّاك بأن لا أجيء إلى هذه المروج مرّة أخرى، فقال الرئيس وقد تقدّم قليلاً إلى الأمام ورفع يده نحو السماء: إن الله قد وضعنا ههنا، ووكل إلينا حماية أراضي مختاره اليشاع العظيم، فنحن نحافظ عليها ليلاً، ونهاراً بكلّ قوانا، لأنّها مقدّسة، وهي كالنار تحرق كلّ من يقترب منها، فإذا امتنعت عن محاسبة الدير انقلبت الأعشاب في أجواف عجولك سموماً آكلة، ولكن ليس من سبيل إلى الامتناع، لأنّنا نبقي بهائمك في حظيرتنا حتى تفي آخر فلس عليك.

وهمّ الرئيس بالذهاب فأوقفه يوحنّا، وقال متذلّلاً متوسّلاً: أستحلفك يا سيّدي بهذه الأيّام المقدّسة، التي تألّم فيها يسوع، وبكت لأحزانها مريم، أن تتركني أذهب بعجولي. لا تكن قاسي القلب عليّ،

فأنا فقير مسكين والدير غنيّ عظيم، فهو يسامح تهاملي، ويرحم شيخوخة والدي. فالتفت إليه الرئيس وقال بهزء: لا يسامحك الدير بمثقال ذرة أيّها الجاهل، فقيراً كنت أم غنيّاً، فلا تستحلفني بالأشياء المقدّسة، لأنّنا أعرف منك بأسرارها وخفاياها، وإن شئت أن تقود عجولك من هذه المرابض، فاقتدها بثلاثة دنانير لقاء ما التهمت من الزرع. فقال يوحنّا بصوت مختنق: إنّني لا أملك بارة واحدة يا أبتاه، فاشفق عليّ، وارحم فقري. فأجاب الرئيس بعد أن مشّط لحيته الكثيفة بأصابعه: اذهب وبع قسماً من حقلك وعد بثلاثة دنانير، فخير لك أن تدخل السماء بلا حقل من أن تكتسب غضب اليشاع العظيم باحتجاجك أمام مذبحه، وتهبط في الآخرة إلى الجحيم حيث النّار المؤبّدة.

فسكت يوحنّا دقيقة وقد أبرقت عيناه وانبسط محيّاه وتبدّلت لوائح الاسترحام بملامح القوّة والإرادة، فقال بصوت تمتزج فيه نغمة المعرفة بعزم الشبيبة: هل يبيع الفقير حقله منبت خبزه ومورد حياته، ليضيف ثمنه إلى خزائن الدير المفعمة بالفضّة والذهب؟ أمِنَ العدل أن يزداد الفقير فقراً ويموت المسكين جوعاً كيما يغفر اليشاع العظيم ذنوب بهائم جائعة؟ فقال الرئيس هازّاً رأسه استكباراً: هكذا يقول يسوع المسيح مَن له يُعطى ويزاد، ومَن ليس له يُؤخذ منه.

سمع يوحنا هذه الكلمات فاضطرب قلبه في صدره، وكبرت نفسه، وتعالت قامته عن ذي قبل، كأنّ الأرض قد نمت تحت قدميه،

فانتشل الإنجيل من جيبه، كما يستلّ الجندي سيفه للمدافعة، وصرخ قائلاً: هكذا تتلاعبون بتعاليم الكتاب أيّها المراؤون. هكذا تستخدمون أقدس ما في الحياة لتعميم شرور الحياة، فويل لكم، إذ يأتي ابن البشر ثانية، ويخرب أديرتكم، ويلقي حجارتها في هذا الوادي، محرقاً بالنار مذابحكم، ورسومكم، وتماثيلكم! ويل لكم من دماء يسوع الزكيّة، ودموع أمّه الطاهرة، إذ تنقلب سيلاً عليكم وتجرفكم إلى أعماق الهاوية! ويل وألف ويل لكم أيّها الخاضعون لأصنام مطامعكم، الساترون بالأثواب السوداء اسوداد مكروهاتكم، المحرّكون بالصلاة شفاهكم، وقلوبكم جامدة كالصخور، الراكعون بتذلّل أمام المذابح ونفوسكم متمرّدة على الله. قد قدتموني بخباثة إلى هذا المكان المملوء بآثامكم، وكمجرم قبضتم عليّ من أجل قليل من الزرع تستنبته الشمس لي ولكم على السواء، ولما استعطفتكم باسم يسوع، واستحلفتكم بأيّام حزنه وأوجاعه استهزأتم بي، كأنّي لم أتكلّم بغير الحماقة والجهالة. خذوا وابحثوا في هذا الكتاب وأروني متى لم يكن يسوع غفوراً. واقرؤوا هذه المأساة السماوية وأخبروني أين تكلّم بغير الرحمة والرأفة، أفي موعظته على الجبل، أم في تعاليمه في الهيكل أمام مضطهدي تلك الزانية المسكينة، أم على الجلجلة عندما بسط ذراعيه على الصليب ليضمّ الجنس البشري؟ انظروا يا قساة القلوب إلى هذه المدن والقرى الفقيرة، ففي منازلها يتلوّى المرضى على أسرّة الأوجاع، وفي حبوسها تفنى أيّام البائسين، وأمام أبوابها يتضرّع المتسوّلون، وعلى طرقها ينام الغرباء،

وفي مقابرها تنوح الأرامل واليتامى، وأنتم هـهنا تتمتّعون براحة التواني والكسل، وتتلذّذون بثمار الحقول وخمور الكروم، فلم تزوروا مريضاً، ولم تفتقدوا سجيناً، ولم تطعموا جائعاً، ولم تؤوا غريباً، ولم تعزّوا حزيناً. وليتكم تكتفون بما لديكم، وتقنعون بما اغتصبتم من جدودنا باحتيالكم، فأنتم تمدّون أيديكم كما تمدّ الأفاعي رؤوسها، وتقبضون بشدّة على ما وفّرته الأرملة من عمل يديها وما أبقاه الفلاح لأيّام شيخوخته.

وسكت يوحنّا ريثما استرجع أنفاسه، ثمّ رفع رأسه بفخر، وقال بهدوء: أنتم كثار هـهنا، وأنا وحدي، افعلوا بي ما شئتم، فالذئاب تفترس النعجة في ظلمة اللّيل، لكن آثار دمائها تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس.

كان يوحنّا يتكلم وفي صوته قوّة علويّة توقف في أبدان الرهبان الحركة، وتثير في نفوسهم الغيظ والحدَّة، ومثل غربان جائعة في أقفاص ضيّقة، كانوا يرتجفون غضباً وأسنانهم تصرف بشدّة مترقّبين من رئيسهم إشارة ليمزّقوه تمزيقاً ويسحقوه سحقاً، حتى إذا ما انتهى من كلامه، وسكن سكوت العاصفة بعد تكسيرها الأغصان المتشامخة والأنصاب اليابسة، صرخ الرئيس بهم قائلاً:

اقبضوا على هذا المجرم الشقيّ، وانزعوا منه الكتاب، وجرّوه إلى حجرة مظلمة من الدير، فمن يجدف على مختاري الله لا يغفر له ههنا، ولا في الأبديّة. فهجم الرهبان على يوحنّا هجوم الكواسر على

الفريسة وقادوه مكتوفاً إلى حجرة ضيّقة، وأقفلوا عليه بعد أن نهكوا جسده بخشونة أكفّهم ورفس أرجلهم.

في تلك الغرفة المظلمة وقف يوحنّا وقفة منتصر توفّق العدوّ لأسره، ونظر من الكوّة الصغيرة المطلّة على الوادي المملوء بنور النهار، فتهلّل وجهه، وشعر بلذّة روحيّة تعانق نفسه، وطمأنينة مستعذبة تملك عواطفه، فالحجرة الضيّقة لم تسجن غير جسده، أمّا نفسه فكانت حرّة تتموّج مع النسيم بين الطلول والمروج، وأيدي الرهبان التي آلمت أعضاءه لم تمس عواطفه المستأمنة بجوار يسوع الناصري، والمرء لا تعذبه الاضطهادات إذا كان عادلاً، ولا تفنيه المظالم إذا كان بجانب الحقّ، فسقراط شرب السمّ مبتسماً، وبولس رُجم فارحاً، ولكن هو الضمير الخفيّ نخالفه فيوجعنا، ونخونه فيقضي علينا.

وعلم والدا يوحنّا بما جرى لوحيدهما، فجاءت أمّه إلى الدير مستعينة بعصاها، وترامت على قدمي الرئيس تذرف الدموع، وتقبّل يديه ليرحم ابنها ويغتفر جهله. فقال له بعد أن رفع عينيه نحو السماء كمترفع عن العالميات: نحن نغتفر طيش ابنك ونسامح جنونه، ولكن للديّر حقوقاً مقدّسة لا بدّ من استيفائها. نحن نسامح بتواضعنا زلاّت الناس، أمّا اليشاع العظيم فلا يسامح ولا يغفر لمن يتلفون كرومه، ويرتعون زرعه. فنظرت إليه الوالدة والدمع ينسكب على وجنتيها المتجعّدتين بأيدي الشيخوخة، ثمّ نزعت قلادة فضيّة من عنقها ووضعتها في يده قائلة: ليس لديّ غير هذه القلادة يا أبتاه، فهي عطيّة والدتي

يوم اقتراني، فليقبلها الدير كفّارة عن ذنوب وحيدي. فأخذ الرئيس القلادة، ووضعها في جيبه، ثمّ قال ووالدة يوحنّا تقبّل يديه شكراً وامتناناً: ويل لهذا الجيل، فقد انعكست فيه آيات الكتاب، وأصبح الأبناء يأكلون الحصرم، والآباء يضرسون. اذهبي أيّتها المرأة الصالحة وصلّي من أجل ابنك المجنون لتشفيه السماء وتعيد إليه صوابه.

وخرج يوحنّا من أسره ومشى ببطء أمام عجوله بجانب أمّه المنحنية على عصاها تحت أثقال السنين، ولمّا بلغ الكوخ قاد العجول إلى معالفها وجلس بسكينة قرب النافذة يتأمّل اضمحلال نور النهار، وبعد هنيهة سمع والده يهمس في أذن أمّه هذه الكلمات: كم عارضتني يا سارة عندما كنت أقول لك إن ولدنا مختلّ الشعور، والآن أراكِ لا تعترضين لأنّ أعماله قد حقّقت كلامي ورئيس الدير الوقور قد قال لكِ اليوم ما قلته أنا منذ سنين.

وظلّ يوحنّا نحو المغرب حيث الغيوم المتلبّدة متلوّنة بأشعة الشمس.

2

جاء عيد الفصح، وتبدّل الانقطاع عن المآكل بالإكثار من المشتهيات، وكان قد تمّ بناء الهيكل الجديد المتعالي بين المساكن في مدينة بشّري كصرح أمير قائم بين أكواخ الرعايا، وكان القوم يترقّبون قدوم أحد الأساقفة، لتكريسه وتقديس مذابحه، ولمّا شعروا

بدنوّه خرجوا صفوفاً صفوفاً على الطريق، وأدخلوه المدينة بين تهاليل الفتيان وتسابيح الكهنة وأصوات الصنوج، وطنين الأجراس، والنواقيس، ولمّا ترجَّل عن فرسه المزدانة بالسرج المزركش واللجام الفضّي، قابله الأئمة والزعماء بمستطاب الكلام، مترحبين به بالقصائد والأناشيد المصدَّرة بالمديح والمذيَّلة بالتبجيل، حتى إذا ما بلغ الهيكل الجديد ارتدى الملابس الحبريَّة الموشَّاة بالذهب، ولبس التاج المرصَّع بالجواهر، وتقلَّد عصا الرعاية المنمَّقة بالنقوش البديعة والحجارة الكريمة، وطاف حول الهيكل منغّماً مع الكهنة الصلوات والتقاسيم، وقد تصاعدت حوله روائح البخور الطيّبة، وشعشعت الشموع الكثيرة، وكان يوحنّا في تلك الساعة واقفاً بين الرعاة والزارعين على رواق مرتفع يتأمّل بعينيه الحزينتين هذا المشهد، ويتنهّد بمرارة ويتأوّه بعصّات موجعة، إذ يرى من الجهة الواحدة ملابس حريريَّة مطرَّزة، وأواني ذهبيَّة مرصّعة، ومباخر ومشاعل فضيَّة ثمينة، ومن الأخرى جماعة من الفقراء والمساكين الذين أتوا من القرى والمزارع الصغيرة، يشاهدون بهجة هذا الفصح والاحتفال بتكريس الكنيسة. من الجهة الواحدة عظمة ترتدي القطيفة والأطالس، ومن الأخرى تعاسة تلتفّ بالأطمار البالية. ههنا فئة قويّة غنيّة تمثل الدين بالتنغيم والتعزيم، وهناك شعب ضعيف محتقر، يفرح سرّاً بقيامة يسوع من بين الأموات، ويصلّي بسكينة هامساً في مسامع الأثير تنهيدات حارَّة صادرة من أعماق القلوب الكسيرة. ههنا رؤساء وزعماء لهم من سلطتهم حياة أشبه بأشجار السرو ذات الاخضرار الأبدي، وهناك بؤساء وزارعون لهم من خضوعهم حياة تشابه سفينة،

ربانـها المـوت وقـد كسـرت الأمـواج دفّتـها ، ومزّقـت الريـاح شــراعها ، فأمست فـي هبوط وصعـود ، بـين غضـب اللجـة وهـول العاصفـة. هـهنا الاستبداد القاسي، وهناك الخضوع الأعمى. فأيّهما كان مولداً للآخر؟ هـل الاسـتبداد شـجرة قويّـة لا تنبـت فـي غـير التربـة المنخفضـة، أم هـو الخضوع حقل مهجور لا تعيش فيه غير الأشواك؟

بهذه التأمّلات الأليمة وهذه الأفكار المعذبة كان يوحنّـا مشغولاً وقد بكّل زنديه على صدره، كأن حنجرته قد ضاقت عن أنفاسه، فخـاف أن يتمـزَّق صـدره حنـاجر ومنـافذ. حتـى إذا مـا انتـهت حفلـة التكريس، وهمّ الشعب بالانصراف والتفرّق، شعر بأنّ في الهواء روحاً تتندبه واعظاً عنها، وفي المجموع قوّة تحرّك روحه، وتوقفه خطيباً أمام السماء والأرض أسر إرادته، فتقدّم إلى طرف الرواق ورفع عينيه، وأشار بيده نحو العلاء، وبصوت عظيم يستدعي المسامع، ويستوقف النواظر صرخ قائلاً:

انظـر يـا يسـوع النـاصري الجـالس فـي قلـب دائـرة النـور الأعلـى. انظـر مـن وراء القبّـة الزرقـاء إلــى هـذه الأرض التــي لبسـت بـالأمس مـن عناصرهـا رداء. انظـر أيّها الحـارس الأمـين، فقـد خنقـت أشـواك الوعـر أعنـاق الزهـور التـي أنعشـت بذورهـا بعـرق جبينـك. انظـر أيّـها الراعـي الصالح، فقد نهشت مخالب الوحوش ضلوع الحمل الضعيف الذي حملته على منكبيك. انظـر، فدمـاؤك الزكيّـة قـد غـارت فـي بطـن الأرض، ودموعـك السـخينة قـد جفّـت فـي قلـوب البشـر، وأنفاسـك الحـارّة قـد

تضعضعت أمام رياح الصحراء، وأصبح هذا الحقل الذي قدّسته قدماك ساحة قتال تسحق فيها حوافر الأقوياء ضلوع المنطرحين، وتنتزع أكفّ الظالمين أرواح الضعفاء.... إن صراخ البائسين المتصاعد من جوانب هذه الظلمة لا يسمعه الجالسون باسمك على العروش، ونواح المحزونين لا تعيه آذان المتكلّمين بتعاليمك فوق المنابر، فالخراف التي بعثتها من أجل كلمة الحياة، قد انقلبت كواسر تمزّق بأنيابها أجنحة الخراف التي ضممتها بذراعيك، وكلمة الحياة التي أنزلتها من صدر الله، قد توارت في بطون الكتب وقام مقامها ضجيج مخيف ترتعد من هوله النفوس. لقد أقاموا يا يسوع لمجد أسمائهم كنائس ومعابد كسوها بالحرير المنسوج والذهب المذوّب، وتركوا أجساد مختاريك الفقراء عارية في الأزقّة الباردة، وملؤوا الفضاء بدخان البخور ولهيب الشموع، وتركوا بطون المؤمنين بألوهيتك خالية من الخبز، وأفعموا الهواء بالتراتيل والتسابيح، فلم يسمعوا نداء اليتامى وتنهيدات الأرامل. تعالَ ثانيةً يا يسوع الحيّ، واطرد باعة الدين من هياكلك، فقد جعلوها مغاور تتلوّى فيها أفاعي روغهم واحتيالهم. تعالَ وحاسب هؤلاء القياصرة، فقد اغتصبوا من الضعفاء ما لهم وما لله. تعالَ وانظر الكرمة التي غرستها يمينك، فقد أكلت جذوعها الديدان، وسحقت عناقيدها أقدام ابن السبيل. تعالَ وانظر الذين ائتمنتهم على السلام، فقد انقسموا على ذواتهم وتخاصموا وتحاربوا، ولم تكن أشلاء حروبهم غير نفوسنا المحزونة وقلوبنا المضنكة.. في أعيادهم واحتفالاتهم يرفعون أصواتهم بجسارة قائلين: المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام وبالنّاس المسرّة.

فهل يتمجّد أبوك السماوي بأن تلفظ اسمه الشفاه الأثيمة والألسن الكاذبة؟ وهل على الأرض سلام وأبناء الشقاء في الحقول يفنون قواهم أمام وجه الشمس ليطعموا فم القوي ويملؤوا جوف الظالم؟ وهل بالناس مسرّة والبؤساء ينظرون بأعين كسيرة إلى الموت نظرة المغلوب إلى المنقذ؟ ما هو السلام يا يسوع الحلو؟ هل هو في أعين الأطفال المتّكئين على صدور الأمّهات الجائعات في المنازل المظلمة الباردة؟ أم في أجساد المعوزين النائمين على أسرّة حجريّة يتمنّون القوت الذي يرمي به قسس الدير إلى خنازيرهم المسمّنة ولا يحصلون عليه؟ ما هي المسرّة يا يسوع الجميل، أبأن يشتري الأمير بفضلات الفضّة قوى الرجال وشرف النساء، ولأن نسكت ونبقى عبيداً بالنفس والجسد لمن يدهشون أعيننا بلمعان ذهب أوسمتهم وبريق حجارتهم وأطالس ملابسهم، أم بأن نصرخ متظلّمين مندّدين، فيبعثوا إلينا بأتباعهم حاملين علينا بسيوفهم وسنابك خيولهم، فتتسحق أجساد نسائنا وصغارنا، وتسكر الأرض من مجاري دمائنا؟.. امدد يدك يا يسوع القوي، وارحمنا لأن يد الظلوم قوّية علينا، أو أرسل الموت ليقودنا إلى القبور حيث ننام براحة مخفورين بظلّ صليبك إلى ساعة مجيئك الثاني، لأن الحياة ليست حياة عندنا، بل هي ظلمة تتسابق فيها الأشباح الشرّيرة، وواد تدبّ في جوانبه الثعابين المخيفة. ولا الأيّام أيّام عندنا، بل هي أسياف سنينة يخفيها الليل بين لحف مضاجعنا ويشهرها الصباح فوق رؤوسنا عندما تقودنا محبّة البقاء إلى الحقول. ترأف يا يسوع بهذه الجموع المنضمّة باسمك في يوم قيامتك من بين الأموات، وارحم ذلهم وضعفهم.

كان يوحنّا يناجي السماء والشعب حوله بين مستحسن راضٍ ومستقبح غاضب. فهذا يصرخ: لم يقل غير الحقّ فهو يتكلّم عنا أمام السماء لأنّنا مظلومون. وذا يقول: هو مسكون يتكلّم بلسان روح شرّيرة. وذاك يقول: لم نسمع قطّ مثل هذا الهذيان من آبائنا وجدودنا ، ولا نريد أن نسمعه الآن. وآخر يهمس في أذن قريبه: أحسست بقشعريرة سحريّة تهزّ قلبي في داخلي عندما سمعت صوته، فهو يتكلّم بقوّة غريبة. وغيره يجيب: نعم ولكن الرؤساء أعرف منّا باحتياجاتنا فمن الخطأ أن نشكّ بهم.

وبينما هذه الأصوات تتصاعد من كلّ ناحية وتتآلف كهدير الأمواج، ثمّ تضيع في الهواء، جاء أحد الكهنة وقبض على يوحنّا وأسلمه للشرطة، فقادوه إلى دار الحاكم، ولما استنطقوه لم يجب بكلمة لأنّه تذكّر أن يسوع كان سكوتاً أمام مضطهديه، فأنزلوه إلى سجن مظلم حيث نام بسكينة متّكئاً على الحائط الحجري.

وفي صباح اليوم التالي جاء والد يوحنّا وشهد أمام الحاكم بجنون وحيده قائلاً: طالما سمعته يهذي في وحدته يا سيّدي، ويتكلّم عن أشياء غريبة لا حقيقة لها، فكم سهر الليالي مناجياً السكون بألفاظ مجهولة، منادياً أخيلة الظلمة بأصوات مخيفة تقارن تعازيم العرّافين المشعوذين. سل فتيان الحي يا سيّدي، فقد جالسوه وعرفوا انجذاب عاقلته إلى عالم بعيد، فكانوا يخاطبونه فلا يجيب، وإن تكلّم جاءت أقواله ملتبسة لا علاقة لها بأحاديثهم. سل أمّه فهي أدرى النّاس بانسلاخ نفسه عن المدارك الحسيّة، فقد شاهدته مرّات ناظراً إلى

الأفق بعينين زجاجيتين جامدتين، وسمعته متكلّماً بشغف عن الأشجار والجداول والزهور والنجوم، مثلما تتكلّم الأطفال عن صغائر الأمور. سل رهبان الدير، فقد خاصمهم بالأمس محتقراً تنسّكهم وتعبّدهم، كافراً بقداسة معيشتهم. وهو مجنون يا سيّدي، ولكنّه شفوق عليّ وعلى أمّه، فهو يعولنا في أيّام الشيخوخة ويذرف عرق جبينه من أجل الحصول على حاجتنا، فترأف به برأفتك بنا، واغتفر جنونه باعتبارك حنّو الوالدين.

أُفرج عن يوحنّا، وشاع في تلك النواحي جنونه، فكان الفتيان يذكرونه ساخرين بأقواله، والصبايا ينظرن إليه بأعين آسفة قائلات: للسماء شؤون غريبة في الإنسان، فهي قد جمعت في هذا الفتى بين جمال الوجه واختلال الشعور، وقارنت بين أشعة عينيه اللطيفة وظلمة نفسه المريضة.

* * *

بين تلك المروج والروابي الموشّاة بالأعشاب والزهور، كان يوحنا يجلس بقرب عجوله المنصرفة عن متاعب ابن آدم بطيب المرعى، وينظر بعينين دامعتين نحو القرى والمزارع المنتثرة على كتفي الوادي مردّداً هذه الكلمات بتنهيدات عميقة: أنتم كثار وأنا وحدي، فقولوا عنّي ما شئتم، وافعلوا بي ما أردتم، فالذئاب تفترس النعجة في ظلمة الليل، ولكن آثار دمائها تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر، وتطلع الشمس.

فهرس